

البرهان القاطع

في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع

صنّفه

محمّد بن إبراهيم الوزير اليمنيّ

(٧٧٥-٨٤٠ هـ = ١٣٧٤ - ١٤٣٦م)

تحقيق

مصطفى عبد الكريم الخطيب



دار المأمون للتراث




البرهان القاطع
في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

دمشق - ص.ب: ٤٩٧١ - هاتف: ٢٢٩٨٢٠

بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٤٣٣



في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع

صنّفه

محمّد بن إبراهيم الوزير اليمني

(٧٧٥-٨٤٠ هـ = ١٣٧٤-١٤٣٦ م)

تحقيق

مصطفى عبد الكريم الخطيب

دار المأمون للتراث

دمشق - ص. ب ٤٩٧١ - بيروت - ص. ب ١١٣/٦٤٣٣

الإهـــدَاء

إلى الذين آمنوا، وإلى الذين كفروا، سواء بسواء...
أقدم هذا الكتاب.

مصطفـــى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ عبد الرحمن بن يحيى الإرياني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله الطاهرين وصحابته الراشدين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد، فقد عرض عليّ الأخ الباحث المحقق الأستاذ مصطفى عبد الكريم الخطيب أمده الله بعونه وتوفيقه رسالة «البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع» للسيد العلّامة المجتهد المطلق محمد بن إبراهيم الوزير رحمه الله ورضي عنه، وطلب مني مدفوعاً بحسن الظن أن أحرر مقدمة للرسالة إذ يزمع على إعادة طبعها مصحّحة محقّقة، ولما طالعت ما كتب عليها من المقدمة والتعاليق المفيدة، وجدت أنه لم يدع مقالاً لقائل، وأن كـل ما يُكتب بعد ذلك إنما هو تحصيل حاصل فيصدق عليه المثل العربي القائل: «قَطَعَتْ جَهيزَة قول كل خطيب».

وإذا جاز لي أن أضيف شيئاً إلى ذلك، فهو أن أشير إلى ما لاقاه هذا الإمام من الأذى من متعصبي المذهب الزيدي لاجتهاده وخروجه عن المذهب غافلين أو متغافلين عما أقره هذا المذهب وانفرد به من قاعدة «كل مجتهد مصيب». فقد لاقى رحمه الله من المصاعب والأذى ما لا يتحمله إلا أولو العزيمة، الذين يستهينون بتحمل المشاق في سبيل

إحقاق ما يرونه حقاً من الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما يأخذون وما يدعون فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه، منادياً بقول من قال:

دعوا كلّ قول عند قول محمدٍ فمـا آمِنٌ في دينه كمخـاطر

وأضرب مثلاً على ما لاقاه من الأذى بما جرى بينه وبين شيخه العلاّمة علي بن محمد بن أبي القاسم رحمه الله، الذي ألف رسالة ينقد عليه فيها نزوعه إلى الاجتهاد والخروج على ما قدره علماء المذهب، اعتماداً على الكتاب الكريم وما صحّ من السنة المطهرة، وقد كان لهذه الرسالة الفضل، إذ أنتج في الرد عليها كتابه القيّم «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم»[1] وهو كتاب فريد قال عنه شيخ الإسلام الشوكاني رحمه الله «بأنه يسرد فيه في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لبّ مطالعه ويعرفه بقصر باعه بالنسبة إلى هذا الإمام، ولو خرج هذا الكتاب إلى الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله».

ولنضرب مثلاً ثانياً على مالاقاة رحمه الله من المتاعب والمشاق، بما جرى بينه وبين الإمام العلاّمة أحمد بن يحيى المرتضى، مؤلف الأزهار والبحر الزخار رحمه الله من مهاجمات شعرية نقداً ورداً، فإنه لما أنشأ العلاّمة الوزير رحمه الله قصيدته الضّادية التي يقول فيها:

أصول ديني كتابُ اللهِ لا العَرَضُ وليس لي في أصولٍ غيره غرضُ
لولاه بالنصّ ما كان الرسول دَرَىٰ ما هُوْ الكتاب ولا الإيمان يفتَرضُ
ما احتج قط نبيٌّ في الكتاب بما قالوا كأن لم يكن في وقتهم عَرَضُ
وفي توهمهم أن الخليل به استدلّ أفحش وهم ليس يرتحض[2]
ما القول في ذاك بين النيرين وما بين الأفولين للنظار لـو حُضوا

---

(١) الكتاب في أربعة مجلدات طبع منها الأول والثاني، والثالث والرابع تحت الطبع.
(٢) الرحض: الغسل بالماء، أي: أن الماء لا يقوى على تنظيف هذا الوهم من الدرن.

ومالهم عن دليل المعجزات أما | بالشمس عن زحل للمهتدي عوضُ

وهي طويلة تتجاوز ثلاثين بيتاً، جاء فيها ببعض آرائه وحججهالتي جاءت في هذا الكتاب، ولما وقف عليها الإمام المهدي رحمه الله، رد عليه بقوله:

يا ذا الذي لأصول الدين يعترض | وقال ليس له في علمه غرض

لو كنت تعلمه ما قلت معترضاً | أصول ديني كتاب الله لا العرض

هذي مقالة من زلت به قدمٌ | عن منهج الحقّ أو في قلبه مرض

كيف السبيل إلى عرفان خالقنا | قلت الكتاب وهذا القول منتقض

إذ لا نصدقه إلّا وحكمة مَنْ | أنشاه برهانها للعقل منتهض

وهي طويلة تنوف على خمسة وعشرين بيتاً.

وقد ردّ عليها العلاّمة الأمير رحمه الله بقصيدة أنافت على مائة وثلاثين بيتاً قال فيها:

أسأت فهماً ورداً ليس يغتمض | وكيف من جهل المقصود يعترض

أنكرت قوليَ أن الذكر فيه هدىً | يكفي الذي ليس يقوى عنده العرض

أردتُ أن براهين الكتاب هدى | لمن تأملها بالعلم تنتهضُ

ولم أقل إنها تكفي بلا نظرٍ | ولا دليلٍ ولا عقلٍ فتعترض

أجبت بالزور جهلاً ما دريت بما | أردتُ والردّ قبل الفهم مُعْتَرَضُ

وقد أورد في هذه القصيدة حججه ونقض حجج مطارِحِه وكلا الإمامين إمام في العلم، لا يفرق بينهما إلا الاجتهاد في الأول، والتقليد في الثاني، رحمهما الله تعالى، وأجزل ثوابهما.

هذا ما عنّ لي الإشارة إليه، مضيفاً إلى ذلك كلمة شكر لهذا الشاب النابه المحقق، الحريص على إحياء التراث العربي والإسلامي، آملاً أن يستمر في هذا النهج الذي أرجو الله تعالى أن يؤجره عليه، وسيجد في المكتبات اليمنية الكثير من كتب التراث المغمورة، أعانه الله

ووفقه، وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

وحرر في ١٩ شهر ربيع الأول ١٤٠٨ = ١٠/١٠/١٩٨٧

وكتبه

عبد الرحمن بن يحيى الإرياني تجاوز الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

حينما ينظر الإنسان العربيّ إلى تراث أمته تتملّكه الدهشة، لا من كثرة هذا الإرث، وإنما للقيمة الحضارية العالية التي خصّ الله بها الفكر العربي الإسلامي أثناء عصر الازدهار.

فقد تميّز هذا الفكر بـالشموليّـة والخصب والسموّ، وهي من الفضائل التي جعلت إنساننا المعاصر يشعر بالعقم والدونيّة[1] إزاء أولئك الذين شادوا هذا الصرح الثقافي الكبير.

وفي غمرة القلق ـ الروحيّ والماديّ والنفسيّ ـ التي يحياها إنسان هذه الأيام، تتردّد بين الحين والحين صيحات مدويّة تشير إلى أنّ كلّ أحكام المعارف التي حمت الإنسان بمختلف العصور قد استنفذت أغراضـهـا والثقافة العربية جزء من هذه المعارف، وهي ـ أي: هذه الصيحات ـ تطالب المجتمعات البشرية باستنباط أحكام جديدة يكون من مهمّتها حماية الإنسان في معاشه وقيمه ونظمه إزاء ما يتهدّده من مخاطر وأهوال. وهذا يعني أن التراث العربي، وثقافة الأمة العربية، ليسا إلّا مرحلةً من عمر الكيان الحضاري تجاوزهما الزمن، ولم يعودا

---

(١) انعدام الكفاءة تجاه الآخرين، سيكولوجية الإنسان المقهور ص١٣، د. مصطفى حجازي.

صالحين مع ما ينسجم وروح العصر بأنماطه الفكرية المعقدة.

لكن ما ينبغي أن يعرف ويقال أن في التراث العربي حقيقة، الكثير الكثير من الكتب والموضوعات القادرة على معالجة الإنسان ومجتمعه، ثم الارتقاء بهما إلى حيث ينبغي أن يكونا ـ الإنسان ومجتمعه ـ مبرأين من كلّ النقائض ولكن أين هو التراث؟؟.

في الواقع إن ما هو موجود اليوم بين أيدي الناس من كتب التراث العربي لا يشكل إلّا النزر اليسير من تراث هذه الأمة، فقد كشفت الإحصائيات الحديثة النقاب عن وجود ما يقرب من ثلاثة ملايين مخطوطة عربية ـ قد تزيد بالمستقبل ـ موزعة على مكتبات الخافقين لم ينشر منها إلى الآن من قبل الباحثين ـ عرب وأجانب ـ سوى $\frac{١}{١٠٠}$ من مجموع هذه المخطوطات! وهذا معناه أن حوالي ٩٩٪ من حضارة العرب أصبح الآن في حكم المجهول حتى من قبل العرب أنفسهم فعلى أي الأسس يا ترى صدر الحكم بعدم جدوى ثقافة العرب المسلمين؟؟ وما المبررات والحيثيات التي أقام عليها أصحاب هذا الحكم قرارهم الجائر مادامت الشواهد غائبة، وليس من شاهد إلا واحد يقول: إن حضارة الغرب اليوم تدين بالفضل لهذا التراث؟.

وحينما نقول: إن في التراث العربي ما يدفع إلى التقدم والازدهار، فلا ينبغي أن يفسَّر هذا بأنه رجعة إلى الماضي في الشكل والمضمون، بل هو دعوة لأن يعي العرب تراثهم العريق على أنه اللهب الحيّ الذي يذكي فيهم إحساس الأصالة من خلال ربط واقعهم المعاش بأمجد صفحات ماضيهم، وبهذا المعنى فإن الذين يذهبون مذاهب أهل اليسار يشهد أدبهم على كافة المستويات بأهميّة التراث والدور الذي يؤديه في بناء المجتمع حاضره ومستقبله.

ولعل من أهم الخصائص التي تميز بها التراث العربي أنه جاء شاملاً متنوعاً تناولت بعض كتبه أبحاثاً في الطب والهندسة والزراعة والفلسفة واللغة والفقه، بينما تناول بعضها الآخر أبحاثاً في علوم التاريخ والتراجم والجغرافيا وما يعرف اليوم بعلوم الاجتماع.

أما علم الكلام فقد حظي بعناية خاصّة، فكان العرب المسلمون من أكثر أمم العالم اشتغالاً بهذا العلم الذي جاء نتيجة انفتاح المسلمين بعد عصر الدعوة مباشرة على ثقافة الأقوام التي استوعبها الإسلام، وكنتيجة مباشرة لظهور المذاهب والفرق المتعددة في الفترة ما بين نهاية العصر الأموي، وبداية العصر العباسي. هذا، وربما كان أتباع فرقة المعتزلة أكثر الجماعات الإسلامية ولعاً واشتغالاً بهذا العلم، ذلك أن واصل بن عطاء رأس هذه الفرقة مشهود له بعلو الكعب في هذا المضمار.

وتعدّ الزيديّة ـ وهي فرقة شيعيّة ـ منذ نشأتها معتزليّة الاتجاه، فالإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رض) المنسوبة إليه هذه الفرقة، كان قد تتلمذ على واصل وأخذ عنه روح الاعتزال.

ومن جهة أخرى فتح فقهاء المذهب الزيدي ومجتهدوه أبواب الاجتهاد وأطلقوا الفكر من إساره على خلاف المذاهب الأخرى، وفي مثل هذه الحالة كان علم الكلام من أبرز الدعامات الفكرية التي اعتمدها فقهاء الزيديّة منذ أن دخل الهادي يحيى بن الحسين الرسّي إلى اليمن عام ٢٨٤ هـ/٨٩٨ م.

والكتاب الذي بين أيدينا واحد من الكتب الموضوعة في مسألة البحث عن الخالق وإثبات وجوده، وهي مسألة ـ كما هو معروف ـ أقلقت الإنسان منذ عهده الأول، ولا حاجة بنا إلى ذكر هذه المسألة

وتطوراتها عبر مختلف المراحل، لأن ما هو ثابت بـاليقين لا يفسده الشك، ومشاهدة الباطن أبلغ وأقوى وأجلّ من مشاهدة الأبصار، إنما نودّ أن نشير بأن واضع هذا الكتاب زيدي المذهب، ومن أولئك الذين أفنوا عمرهم بحثاً عن الحقيقة مبرّأة، ومن المدافعين المنافحين عن الإسلام مدفوعين بعقيدة صادقة ومسلّحين بالحجة والبرهان من واقع الكتاب والسنة على طريقة المتقدمين من علماء الكلام. ذلكم هو الإمام محمد بن إبراهيم الوزير اليمني الصنعاني أحد العلماء الجهابذة الذين أرسَوا قواعد الإصلاح الديني في اليمن، والتي سار على نهجها فيما بعد أعيان من فضلاء الزيدية بلغوا رتبة الاجتهاد من أمثال صالح بن مهدي المقبلي ١٠٤٧ هـ ـ ١١٠٨ هـ، ومحمد بن إسماعيل الأمير ١٠٩٩ ـ ١١٨٢ هـ، وتلميـذه الفذ شيـخ الإسـلام محمـد بن علي الشوكاني ١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ.

عاش هذا الإمام في الفترة ما بين ٧٧٥ ـ ٨٤٠ هـ وهي كما هو واضح نفس الفترة التي عاشها ابن حجر العسقلاني في مصر ٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ، والحافظ أبو عبد الله محمد الذهبي، والسادة الأعلام من آل قدامة في الشام، وكذلك آل رجب الحنبلي ببغداد والعراقين.

مولـد المؤلف ونشأتـه:

ولد الإمام إبراهيم بمنطقة شظب شمال غرب مدينة صنعاء على مسافة ١٠٠ كم بتاريخ مختلف فيه، بيد أن أكثر الروايات دقّةً تذكر أن ولادته في شهر رجب من سنة ٧٧٥ هـ/كانون ثاني ١٣٧٤ م.

تلقّى علومه الأولى على شيوخ بلدته، ثم رحل إلى صعدة، والتقى بعلمائها فقرأ علم الكلام على القاضي علي بن عبد الله بن أبي الخير، وأصول الفقه على السيد علي بن محمد بن أبي القاسم صاحب تجريد الكشاف، والذي كان يشير إلى طلبة العلم بالذهاب إليه بعد أن

تفقّه ونبغ، بيد أنه جرت بين الأستاذ وتلميذه ما يجري عادة من المواحشة بين العلماء[1]. وقرأ الفروع على القاضي عبد الله بن الحسن الدواري، واستمر هذا شأنه حتى استوعب كلّ هذه المعارف ثم رحل إلى صنعاء، فالتقى بشيخ المحدّثين فيها العلامة حسين بن محمد القرشي العلفي، وهو ممن كان يُرحل إليه من كافة أنحاء اليمن[2]، فأخذ عنه علوم الحديث، ثم يمّم وجهه شطر مدينة تعز عاصمة اليمن في عهد الأسرة الرسوليّة آنئذٍ، وكانت تعز في هذه الأثناء كدمشق والقاهرة بالنسبة لمصر والشام، تزهو بمختلف الأنشطة العلميّة والفكريّة، وفيها التقى بالإمام نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلويّ[3] الذي أجازه بإجازة مطولة مثبتة في مقدمة كتاب «العواصم والقواصم»[4].

ثم غادر تعز وقام برحلته الشهيرة إلى مكة فالتقى بعلمائها وعلى رأسهم شيخ الحرم المكي ورئيس الشافعية، محمد بن عبد الله بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٧ هـ[5]، ومحمد بن الخير القرشيّ الشافعيّ، ومحمد بن أحمد الطبري، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم المعروف بأبي اليمن الشافعي، وعلي بن مسعود بن عبد المعطي الأنصاري المالكي، وأبو الخير بن الزين بن محمد القطب القسطلاني، وعلي بن أحمد بن سلامة السلمي، وجار الله بن صالح الشيباني، وأحمد بن علي الحسيني الشهير بالفاسي، وجميعهم من أعيان علماء الحجاز والحرمين الشريفين

(١) البدر الطالع ١/٤٨٥.
(٢) طبقات صلحاء اليمن، معروف بتاريخ البريهي، ص ٢٥ وما بعدها.
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٦.
(٤) العواصم والقواصم ١/٢٦.
(٥) البدر الطالع ٢/١٩٦.

فأجازوه جميعاً على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، كلٌّ فيما يخصّه، وفي مكة تفتّقت عبقريّته عن أريحيّة نادرة لفتت إليه أنظار العلماء، فاشتُهر صيته وبَعُد ذكره، يقول الإمام الشوكاني: لو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحّر في العلوم لأطال عنان قلمه في الثناء عليه، فإنه يثني على من هو دونه بمراحل، ولعلّها لم تبلغ أخباره إليه، وإلا فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة على اثنتي عشرة سنة... وكذلك السخاوي لو وقف على - العواصم والقواصم - لرأى فيها ما يملأ عينيه وقلبه، ولطال عنان قلمه في ترجمته، ولكن لعله بلغه الاسم دون المسمى[1].

وبعد أن بلغ رتبة الاجتهاد جنح إلى السنة، واقتفى أثر الصحابة، رضوان الله عليهم، وعمل بوحي من الكتاب وأوامر الرسول دون أن يقلّد أيًّا من أصحاب المذاهب الإسلامية، فالمجتهد القادر على استنباط الأحكام من مظانّها، يختلف عن المقلّد الذي يأخذ بمذهب غيره دون دليل.

جاء في ترجمته عند الشوكاني. أن محمد بن ظهيرة شيخ الحرم المكي، لما رأى ما رأى من مكانته العلميّة، وجلال قدره أثناء جواره بمكة قال له: «ما أحسن يا مولانا لو انتسبت إلى الإمام الشافعي أو أبي حنيفة»، فغضب وقال: «لو احتجت إلى هذا النسب والتقليدات، ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم[2] أو حفيده الهادي[3]». وهذا

(١) البدر الطالع ٢/٨٣.

(٢) هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسني العلوي، معروف بالرسي، شقيق ابن طباطبا، من أئمة الزيدية ولادته سنة ١٦٩ هـ ووفاته بالرس، على بعد ستة أميال عن المدينة سنة ٢٤٦ هـ. الأعلام ٥/١٧١.

(٣) البدر الطالع ٢/٩٠، والهادي هذا هو يحيى بن الحسين بن القاسم أول من دخل إلى اليمن من أئمة الزيدية نزل بصعدة سنة ٢٨٣ هـ، ودعا لنفسه بالإمامة، فتح نجران وصنعاء وخطب له على منابر مكة سبع سنوات، وفاته بصعدة سنة ٢٩٨ هـ. الأعلام ٨/١٤١.

ما يؤكد بأن الرجل تسامى فوق ضيق الأفق وعمياء التعصب لمذهب دون آخر، والتزم بعقيدة التوحيد، وحثّ على اتباع أحكام الكتاب والسنّة، وعاب على الناس تفرّقهم الرهيب في مختلف المذاهب، وحذّرهم من مغبّة الاستغراق في المجالات الفلسفية التي لا فائدة يتوخاها المرء، إلا التمزق والتناحر.

وقد أثنى عليه ابن حجر في «إنباء الغمر»، والسخاوي في «الضوء اللامع»، وصديق حسن خان في «أبجد العلوم»؛ غير أن هذه الإطراءات جاءت مقتضبة، ولا يبعد أن يكون السبب في ذلك على رواية الشوكاني: «أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرّد التقليد لمن لم يطّلع على الأحوال»[1].

وبعد عودته من الحجاز أعرض عن الاشتغال بعلم الكلام، فالمتكلمون من خلال النتائج التي توصّل إليها إنما يداوون أقوالاً مريضة، ويقوّون أجنحة مهيضة، لا تصمد مع ما وقر في القلب، وبهذا المعنى يقول: وقد وهبت أيام شبابي ولذّاتي، وزمان اكتسابي ونشاطي لكدورة علم الكلام والجدال، والنظر في مقالات أهل الضلال حتى عرفت قول من قال:

لَقد طُفْتُ في تلك المعاهِدِ كلِّها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلاّ واضعاً كفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ أو قارعاً سِنَّ نادم

ومن شعره الذي يؤكد فيه تحوّله إلى السنّة وتركه لمسألة التمذهب قوله[2]:

---

(١) البدر الطالع ٢/٨٣.

(٢) العواصم والقواصم ١/٧٧.

يـا حبّذا يـومَ القيـامـة شهـرتـي   بين الخلائق في المقام الأحمد
لِمَحبّتي سُنَن الـرسـول وإنني   فيهـا عَصَيْتُ مُعَنِّفي ومُفَنّـدي
وتـركتُ فيها جيـرتي وعشيـرتي   ومحـلَّ أترابي ومـوضعَ مَـوْلدي

وفي موضع آخر يقول:

هذي الفروعُ وفي الأصول عقيدتي   مـا لا يخالفُ فيـه كلُّ مُـوَحِّـدِ
ديني كـأهـل البيتِ دينـاً قيّمـاً   مُتَنَزِّهـاً عن كـلّ مُعْتَقَـدٍ رَدِي
لكنّني أرضى العـتيـقَ وأحتـمي   من كـل قـولٍ حـادث متجـدِّدِ

وأثناء إقامته في اليمن بعد عودته من الحجاز، ابتَلي بالمحن، فكان أدعياء العلم من متعصبي الزيدية يثورون عليه، ويردّون على آرائه باعتراضات سقيمة، ويوشون به إلى الحكام، وفي كلّ مرة على رواية الشوكاني: «كان يجاوبهم ويصاولهم فيقهرهم بالحجة»(١)، غير أنه أدرك فيما بعد أنه كالطبيب الذي يتعاطى علاج داء عياء، فآثر العزلة وانقطع عن الناس، وأقام في الأماكن المهجورة وكهوف الجبال، مقبلاً على العبادة والتأليف، حتى أدركته الوفاة إثر تعرض اليمن لمرض الطاعون سنة ٨٤٠ هـ، ودفن بمسجد فروة بن مسيك المعروف بصنعاء وقبره مشهور مزور لا يزال إلى الآن.

مؤلفـاتـه:

وضع الإمام محمد بن إبراهيم الوزير خلال رحلته الحياتيّة عدداً ضخماً من المؤلفات الهامّة جعلته كمن وصفه الشاعر بقوله:

آثـاره تـنبيـك عـن أخبـاره   حتى كـأنـك في العيـان تـراه

ويأتي في مقدمة هذه المؤلفات:

---

(١) البدر الطالع ٢/٩٢.

١ ـ العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم. أشار الأستاذ عبد الله الحبشي إلى وجود نسخة عنه بمكتبة العبيكان وإلى وجود عدة نسخ عنه بمكتبة الجامع. والكتاب الآن مطبوع في مجلدين بتحقيق الأستاذ شعيب الأرناؤوط[١].

٢ ـ مجمع الحقائق والرقائق في ممادح ربّ الخلائق[٢].

٣ ـ واضحة المناهج وفاضحة الفوالج[٣].

٤ ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: عنه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع بصنعاء[٤].

٥ ـ التأديب الملكوتي في العجائب والغرائب[٥].

٦ ـ الأمر بالعزلة في آخر الزمان[٦].

٧ ـ تنقيح الأنظار في علوم الآثار[٧].

٨ ـ حصر آيات الأحكام عنه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع[٨].

٩ ـ قبول البشرى بالتيسير لليسرى[٩].

١٠ ـ التفسير النبوي[١٠].

---

(١) إيضاح المكنون ٢/١٣٠ وكذلك مصادر الفكر الإسلامي ص ١١٩ عبد الله محمد الحبشي.

(٢) إيضاح المكنون ٢/٤٣٤.

(٣) العواصم والقواصم ١/١٠٣.

(٤) مصادر الفكر الإسلامي ص ١١٩.

(٥) إيضاح المكنون ١/٢١١.

(٦) العواصم والقواصم ١/٧٥.

(٧) العواصم والقواصم ١/٧٤.

(٨) العواصم والقواصم ١/٧٤ وكذلك مصادر الفكر الإسلامي ص ٢٣.

(٩) العواصم والقواصم ١/٧٤.

(١٠) مصادر الفكر الإسلامي ص ٢٣.

١١ - نصر الأعيان على شرّ العميان: ردّ به على أبي العلاء المعري[١].

١٢ - الروض الباسم في الذبّ عن سنّة أبي القاسم: عنه نسخة بمكتبة الجامع بصنعاء[٢] اختصر فيه كتابه الأول العواصم والقواصم.

١٣ - الحسام المشهور[٣].

١٤ - إيثار الحق على الخلق: عنه عدة نسخ بمكتبة الجامع بصنعاء[٤].

١٥ - التحفة الصفيّة في شرح الأبيات الصوفيّة: عنه نسخة بمكتبة الجامع بصنعاء[٥].

١٦ - البرهان القاطع في إثبات الصانع، وجميع ما جاءت به الشرائع وهو الكتاب الذي بين أيدينا، عنه نسخة بمكتبة الجامع[٦].

١٧ - رياض الأبصار في ذكر الأئمة الأقمار والعلماء الأبرار عنه نسختان في مكتبة المدرسة السابقة في طهران[٧].

بالإضافة إلى ديوان شعر مجموع وعدد كبير من الرسائل والفتاوى والردود على أصحاب المسائل.

حكايتي مع الكتاب وتحقيقه:

منذ أربع سنوات كنت قد بدأت بتحقيق «تاريخ طبق الحلوى

---

(١) العواصم والقواصم ١/٧٥.

(٢) إيضاح المكنون ١/٥٨٨ وكذلك مصادر الفكر الإسلامي ص ١١٩.

(٣) إيضاح المكنون ١/٤٠٢ وكذلك مصادر الفكر الإسلامي ص ١١٩.

(٤) إيضاح المكنون ١/١٥٢ وكذلك مصادر الفكر الإسلامي ص ١١٩.

(٥) العواصم والقواصم ١/٧٣ وكذلك مصادر الفكر الإسلامي ص ٢٨١.

(٦) إيضاح المكنون ١/١٧٩ ومصادر الفكر الإسلامي ص ١٢٠.

(٧) العواصم والقواصم ١/٧٦.

وصحاف المن والسلوى» لعبد الله بـن علي الوزير الصنعاني المتوفى عام ١١٤٦ هـ/١٧٣٣ م، ومن خلال عملي في التحقيق وقفت على أخبار عدد كبير من أعلام آل الوزير منذ أيام جدّهم المؤسس ابن العفيف الذي كان وزيراً للإمام يحيـى بن حمزة ٦٦٩ ـ ٧٤٥ هـ، وحتى مقتل أحمد بن عبد الله الوزير الذي ثار على الإمام يحيـى حميد الدين سنة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م، وقد لاحظت من خلال دراستي لهذه الأسرة العريقة أنها أنجبت عدداً لا بأس به من الشخصيات المتميزة، لعبت دوراً رائداً بمختلف الاتجاهات العامّة في بلاد اليمن، وعلى الأخص ضمن الإطار السياسي والثقافي.

وربما كان لعامل الصدفة أثر هام في إخراج هذا الكتاب بصفته التي بين أيدينا، حينما وجدت على هوامش مخطوطة ـ منية المصلي وغنيـة المبتـدي ـ للإمـام محمـد الـكاشغـري ٧٠٥ هـ، وهي من المخطوطات المودعة في خزانة آبائي وأجدادي عبارات مقتبسة من هذا الكتاب بتاريخ مجهول وخط مجهول، تقول في بدايتها: «قال ابن الوزير في برهانه» و: «جاء في كتاب البرهان لابن الوزير» فظننت بادىء الأمر بأن هذه العبارات مستلة من كتاب اسمه البرهان للمؤرخ عبد الله بن الوزير صاحب الطبق، ولم يكن صعباً عليّ أن أعرف بأن الكتاب هو البرهان القاطع للإمام محمد بن إبراهيم الوزير شقيق الجد العاشر لعبد الله صاحب طبق الحلوى، وأن الكتاب مطبوع طبعة قديمة هي الآن في حكم المخطوط.

تمكنت من الحصول على نسخة من هذا المطبوع من لدن أحد الأصدقاء يعود تاريخ طبعها لعام ١٣٤٩ هـ بالقاهرة، فإذا بها غيـر محققة، وخالية تماماً من أي تعليق، إضافة إلى وجود أخطاء في بعض فقراتها، حتى في بعض نصوص الآيات القرآنية، إضافة إلى وجود فراغ

في إحدى الفقرات، ربما لأن الطابع أو المشرف على طباعة الكتاب لم يتمكن من معرفة قراءته، فتداركت ذلك من المنازع التي ذكرت هذا الخبر، وقارنت محتويات هذا الكتاب مع ما هو مدون على هوامش مخطوطة منية المصلي، فوجدتها عبارة عن فقرات متفرقة توازي في حجمها ثلث الكتاب تقريباً.

ولما كان أصل هذا الكتاب محفوظاً بمكتبة الجامع بصنعاء، كما أشار صديقنا عبد الله محمد الحبشي في كتابه ـ مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ـ فقد راسلت معهد المخطوطات العربية في الكويت لعلمي أن المعهد قام بتصوير بعض المخطوطات المحفوظة بمكتبة الجامع، غير أن المعهد أفادني بأن مخطوطة البرهان القاطع هذه ليست من بين المخطوطات التي حصل عليها المعهد من صنعاء. فقررت أن أقوم بتحقيق هذا الكتاب القيم معتمداً على النسخة المطبوعة وهي نسخة موثقة بعناية المؤرخ محمد بن محمد زبارة الصنعاني رحمه الله، وعلى مدونات مخطوطة منية المصلي.

وقد اكتفيت أثناء التحقيق بتصحيح مواطن الخطأ في النسخة المطبوعة، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وعرّفت ببعض المصطلحات المبهمة، إضافة إلى ترجمة الأعلام والتعريف بالأماكن والجماعات، والتعليق على بعض الفقرات ما أمكن، وسمّيت أبحر الشعر، وألحقت الكتاب بفهارس للأعلام والأماكن والكتب والطوائف والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تسهيلاً للرجوع إليها عند الضرورة.

ولا يسعني بهذه المناسبة إلا أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى صاحب المعالي القاضي عبد الرحمن الإرياني الذي تفضل مشكوراً بمطالعة هذا السفر الجليل بعد الانتهاء من تحقيقه فأشار عليّ ببعض الملاحظات القيمة.

وإني لأرجو الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وفقنا الله لما يحبّ ويرضى، فهو حسبنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

دمشق في ١/ ٧/ ١٩٨٧

مصطفى عبد الكريم الخطيب

قال ابن الوزير في رسالته : ان الانبياء من أعدل الناس طريقة وأصدقهم لهجة وأكثرهم وقارا وأقلهم طيشا وأزهدهم في المال والجاه وأرفضهم لحب الدعة والراحة قد خبروا على طول الزمن واشتدت عليهم المحن واعتورت أحوالهم طوارق الفتن وتناهت في التكذيب لهم كيد ذوي الاحن فما لينت الشدائد منهم صلبا ولا فترت المكايد لهم عزما بل كانوا كسبيكة النضار وقطعة الياقوت كلما ازدادت النار اشتعالا ازدادت على طول السبك حسنا لا جاموا في حكمهم على عدو ولا شهدوا بغير الحق لصديق . قام نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاما بين ظهراني قومه وعشيرته وحماته من العدو وملاذه فنابذهم وجانبهم وضللهم وكفرهم حتى كانوا يضربونه ويهينونه ويؤذونه بانواع الاذى ويفتنونه ولا يحصل له بذلك غرض دنيوي ولا مقصد عاجل ولا له في ذلك هوى ولا شهوة . وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرضت عليه قريش المال والزوجة والجاه والرئاسة ويترك ما يعيبه من تسفيه حلوم آبائهم وتضعيف الاحياء والميتين من عشيرته فلم يرفع الى كلامهم رأسا ولم يلتفت الى شانئهم اصلا وما احسن البيت المشهور :

وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فأراها أيما شمم

وكم عسى ان تذكر من فضائل لا تحصى ومحاسن لا تستقصى وثانيها معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم الذين جبلت الطباع على محبتهم وعلى رجاء الاستنصار بهم بحيث تركوا ما صنع آباؤهم التي ولع الطبع باتباعها وعادوا عشيرتهم التي يتقى من كل عدو بحماياتها ولقوا في الصبر عنهم الحتوف ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف . هذا نوح عليه السلام ترك ابنه وفلذة كبده وصار سرور عينيه وريحانة فؤاده غرق مع الغرقى واستغفر من دعائه ان لا يهلك مع الهلكى . وهذا ابراهيم عليه السلام وا من أبيه لما تبين له انه عدو الله وعزم على ذبح ولده الذي هو قرة عينه وعزمة غبته

قال بعضهم يأتي بالثناء عند سكتات الامام كلمة وعن الفقيه ابي جعفر اذا ادرك الامام في الفاتحة يثني بالاتفاق في الذخيرة اما في صلاة الجمعة او في العيدين اذا كان بعيدا من الامام اختلف المتأخرون فيه وان ادرك في الركوع يتحرى في رأيه ان كان اكثر رأيه انه لو اتى به يدرك الامام في شيء من الركوع يأتي به قائما والا يركع ويتابع الامام وكذا اذا ادرك الامام في السجدة الاولى او ... ولا يأتي بالركوع ولا يكون مدركا لتلك الركعة ما لم يشارك الامام في الركوع طلها او مقدار تسبيحة وفي الذخيرة ان سوى ظهره في الركوع صار مدركا قدر على التسبيح او لم يقدر وان ادرك في القراءة يكبر فيتعمد وقال بعضهم يأتي بالثناء ثم يتعمد ولا يتعوذ الا بعد الثناء ثم يسمي فيما يخفي في كل ركعة احتياطا لان اكثر المشايخ على هذا اما الامام اذا جهر لا يأتي بها واذا خافت يأتي بها واما التسمية عند ابتداء السورة قال ابو حنيفة لا يأتي بها وعند محمد يأتي بها اذا خافت ثم يقرأ الفاتحة واذا قال الامام ولا الضالين يقول آمين والمؤتم يقولها ويخفونها ثم يضم سورة او ثلاث آيات فاذا قرأ آية او آيتين لم يخرج عن حد الكراهة وان قرأ ثلاث آيات يخرج ولم يدخل في حد الاستحباب لان الواجب ضم السورة او الآيات الثلاث والمستحب ان يقرأ في السفر في حالة الضرورة بفاتحة الكتاب واية سورة شاء

صفحة من مخطوطة منية المصلي وبهامشها فقرة من كتاب البرهان القاطع

قال ابن الوزير في البرهان : أن القرآن ليس من جنس السحر وذلك لأن
الإعجاز فيه إنما هو في حسن ترتيبه وإحكام ترصيفه ومطابقة أمانيه
للطف حالتي القبض والبسط وموافقة أساليبه لرقيق معاني القطع والربط ووعيده
يبكي العيون وتستجلب به الشؤون وتقشعر له الجلود ويقطع نياط القلوب
بما فيه من ذكر الخلود ووعده
يثير النشاط ويبعث الانبساط
وأقاصيصه تسلي المحزون وتهدي
الى القلوب غرائب العلوم مما كان ومما
يكون فكيف يكون ما هذه صفاته
الا كلام قادر عالم لأنه أمر محكم
وإحكام معجب والسحر إنما هو
أثر طبع أو تعصب أو خفة أيدٍ والطبع
لا يؤثر في الامور المحكمات والإلجاز
اسناد حدوث أحكام الانسان الى
الطبائع والشك في ثبوت الحكيم الصانع
والتعصب والخفة لا يؤثران في الإنباء
والإعجاز والا لجوزنا في جميع أشعار
العرب العربا المتأخرين والقدماء
وجميع رسائل العلماء وخطب الخطباء
وملح الفصحاء ونوادر البلغاء أنها
تعصب وخفة ايد وتمويه وأثر طبع
أقصى ما في الباب أن نعلم أن أكثرها
ليس من هذا القبيل فلا نخص في
قصيدة واحدة ولا رسالة معينة
علم يقين أنها ليست بسحر وتعصب
وخفة وشعوذة ومن المعلوم أن من
شك في ذلك فقد خرج من زمرة العقلاء والتحق بأهل التجاهل والسفهاء ولو كان يجوز أنه
من أهل السحر لجوزنا أن نسحر حتى اذا سمعنا محمداً بليغاً ونظاماً بديعاً قد وشيت بعلوم
البيان برودته وحيكت من أماني المعاني حلته وجمعت بطرائف الأمثال أساليبه
وطرزت بمطابقة الأحوال أمانيه جوزنا أنه من طمطمة العجوم وهمهمة

ولا ينكسه ويقول في ركوعه سبحان ربي العظيم ثلاثاً وذلك
أدناه وإن زاد فهو أفضل ويختم على وتر وإن اقتصد على مرة
أو ترك جاز صلاته ويكره وروي عن أبي مطيع أن
تسبيح الركوع والسجود ركن ولو تركه لا يجوز صلاته ولا
ينبغي للإمام أن يطيل على وجه يثقل على القوم لأنه سبب التنفير
وإنه مكروه ولو أطال الركوع لإدراك الجائي لا تقرباً إلى الله تعالى
فهو مكروه لا يكون يحبطه يكفر ويخشى عليه الكفر ولو أطال
تقرباً الى الله تعالى فلا بأس به قال بعضهم يطول التسبيحات
ثم يرفع رأسه ويقول سمع الله لمن حمده وإذا كان
مقتدياً يأتي بالتحميد ولا يأتي بالتسميع وإن كان منفرداً
يأتي بهما أما الإمام فيأتي بالتحميد على قولهما وفي رواية
يقول اللهم ربنا لك الحمد ولا يزيد على هذا ويرسل اليدين في
القومة كذا قال الصدر الشهيد في واقعاته وذكر الإمام
السيد في الملتقط أنه يأخذ وفي صلاة الجنازة ووقت الثناء
والقنوت يأخذ على قول أكثر المشايخ وفي تكبيرات العيدين
يرسل فإذا اطمأن قائماً كبر بالخرور وسجد ثم يضع ركبتيه
أولاً ثم يديه ثم يضع وجهه بين كفيه على الأرض ويبدي
ضبعيه ويجافي بطنه عن فخذيه والمرأة تنخفض في سجودها
وتلزق بطنها بفخذيها ويقول في سجوده سبحان ربي الأعلى
ثلاثاً وذلك أدناه وإن زاد فهو أفضل ويترك على وتر
ثم يرفع رأسه ويقعد ويضع يديه على فخذيه فإذا اطمأن

صفحة أخرى من كتاب منية المصلي وبهامشها فقرة من كتاب البرهان القاطع

مصادر ترجمة المؤلـف

١ - الأعلام، خير الدين الزركلي، الجزء الخامس منه، دار العلم للملايين، بيروت.

٢ - أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، الجزء الثالث منه، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ - أنباء الغمر بأنباء العمر، الجزء السابع منه، مكتب الدراسات الإسلامية، دمشق.

٤ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، وكالة المعارف ١٩٤٥.

٥ - البدرالطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الجزء الثاني منه، دار المعرفة، بيروت.

٦ - تصانيف الشيعة، الجزء الثاني منه، دار الأضواء، بيروت.

٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، الجزء السادس منه، مكتبة دار الحياة، بيروت.

٨ - تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، دمشق ١٩٨٦.

٩ - طبقات صلحاء اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.

١٠ - العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، الجزء الأول منه، مقدمة بقلم الأستاذ إسماعيل الأكوع.

١١ - مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.

١٢ - معجم المؤلفين، الجزء الثامن منه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣ - هدية العارفين، الجزء الثاني منه، طهران.

١٤ - Brockelman - Carl, S 2.

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمدُ لله وحْدَه

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله، وعلى سائر عباده الصالحين.

هذا تنبيهٌ معروفٌ في الغرائز العقلية، غريبٌ في العوائد العرفية. فيه أنورُ برهان على إثبات صانع العالم - سبحانه وتعالى عما يشركون - وإثبات المعاد الأخروي[1]، وكلّ ما جاءت به الرسل الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام.

اعلم أن من أنصف من نفسه، واستنار بمصباح فكره، واستدام النظرَ بمحض عقله، علم أن مائة ألف ونيفاً وعشرين ألفاً من لفيف السوقة، ورعاع الخليقة، وعُماة الأبصار، وضُلّال العقول، وسفهاء الحلوم، وخفاف الوقار، وطُياش الناس، لو تفرقت أوطانهم وأنسابهم وأغراضهم وأزمانهم ومذاهبهم، ولم يكونوا من أهل الأنظار، ولا الرياضات الفلسفية، ولا من أرباب القوانين المنطقية، ولا عرفوا دروس هذه العلوم، ولا تلَمَّذُوا لشيوخ هذه الفنون. ثم اتفقوا على القطع

(١) من الثابت أن للجسم معاداً وللنفس معاداً، ولا مجال لمناقشة هذه الحقيقة ما دامت الشرائع قد فصلت ذلك تفصيلاً كاملاً، وبسطت حال السعادة والشقاء التي يحياها البدن في الآخرة، وإذا كان لعلماء الكلام آراء متضاربة حول هذا الموضوع؛ فلأن أوهامنا تقصر عن تصوّره غير أن ذلك مدرك بالعقل والقياس البرهاني، والنبوة تصدقه.

بصحّة أمر لا مجال للعقول في معرفته كالشرعيات المحضة، أو عقليّ نظريّ كإثبات صانع العالم، بحيث لو اجتمع عيون النظّار وعلماء الأقطار على واحد منهم يشكّكون عليه في اعتقاده، ويُدخلون دقائق الشبه في ضميره، لما رفع إليهم رأساً ولا التفت إلى قولهم أصلاً؛ لعلمنا علماً عادياً أنهم ما تواطؤوا على التعمد للمباهتة والتجري على المغالطة. وأنه ما جمع متفرقات أنظارهم وألّف نوافر طباعهم، وربط بين جوانح مختلفات اختياراتهم، وعصمهم عن متابعة المنفّرات والقادحات في شريف حالهم وعزيز مقامهم إلّا صدق ما ادّعوه من علمهم، باستناد هذا العالَم إلى ربٍّ عظيم ومدبّر حكيم. واضطرار المعجزات والقرائن لهم إلى علم ذلك الثبات الذي لا يمكن رفعه وزواله. وحينئذ لا تلجلج العقول، ولا تردّد الألباب، ولا تبلّد الأذهان، ولا تحيّر الأفهام، ولا توقّف الأنظار عن الجزم على صدقهم. وثلْج الصدور بصحة معتقدهم، ويحصل في النفوس من بَرد اليقين بقولهم، والطمأنينة بصدقهم، ما يلحق بالمتواترات والمشاهدات، ويُرْبى على كثير من المحسوسات. فكيف إذا انضمّ إلى مثل هؤلاء الجمع المتكاثر المقدر بمائة ألف ونيّف وعشرين ألفاً قرائنُ جمّة ومخايل كثيرة، دالّةٌ منهم على الصدق، شاهدة لهم بالحق؟ كالقرائن الشاهدة على صدق الأنبياء عليهم السلام عادةً لا تواتراً، وهي كثيرة جداً فائتة للعدِّ والإحصاء. ونحن نذكر منها اليسير والله ولي التوفيق.

فأولها: أنهم من أعدل الناس طريقة، وأصدقهم لهجة، وأكثرهم وقاراً، وأقلهم طيشاً، وأزهدهم في المال والجاه، وأرفضهم لحب الدعة والراحة. قد خُبِروا على طول الزمن، واشتدت عليهم المحن، واعتورت أحوالَهم طوارقُ الفتن، وتفاقم في النكاية لهم كيد ذوي الإحن. فما ليّنت الشدائد منهم صُلباً، ولا فتّرت المكايد لهم عزماً، بل

كانوا كسبيكة الذهب وفَلْذة الياقوت، كلما ازدادت النار لها أكلاً ازدادت على طول السبك حُسناً، لا جافوا في حكم على عدوّ، ولا شهدوا بغير الحق لصديق.

قام نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاماً بين ظهراني قومه وعشيرته، وحماته من العدو وملاذه[1]. فنابذهم وجانبهم وضلّلهم وكفّرهم، حتى كانوا يضربونه ويُهينونه ويؤذونه بأنواع الأذى ويفتنونه، ولا يحصل له بذلك غرض دنيوي، ولا مقصد عاجل، ولا له في ذلك هوى ولا شهوة.

وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، عَرَضت عليه قريش المال والزوجة والجاه والرئاسة، ويترك ما يدّعيه من تسفيه حلوم آبائه[2]؛ وتعنيف الأحياء والميتين من عشيرته. فلم يرفع إلى كلامهم رأساً، ولم يلتفت إلى مقالتهم أصلاً. وما أحسن البيت المشهور:

وراوَدَتْـه الجبالُ الشمُّ من ذَهَبٍ   عن نَفْسه فَأَراهـا أيَّما شَمَمِ[3]

وكم عسى أن نذكر من فضائل لا تحصى، ومحاسن لا تستقصى.

وثانيها: معاداتهم لقراباتهم، وأرحامهم الذين جُبِلَت الطباع على محبتهم، وعلى رجاء الاستنصار لهم بحيث تركوا مناهج آبائهم التي ولع الطبع باتباعها وعادوا عشيرتهم التي يتّقي من كل عدو بمحاماتها، ولقوا

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ [العنكبوت/١٤].

(٢) يقصد عقول آبائه، وأولو الأحلام هم ذوو العقول والألباب. وفي حديث صلاة الجماعة: «ليلني منكم أولو الأحلام والنُّهى». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٤٣٤. تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود أحمد الطناحي.

(٣) بسيط وهو من قصيدة البردة للبوصيري في ديوانه ص ٢٤٠ بتحقيق محمد سعيد كيلاني، ط. البابي الحلبي.

في الصبر عنهم الحتوف، ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف.

هذا نوح عليه السلام ترك ابنه وفلذة كبده وماء سواد عينيه وريحانة فؤاده، يغرق مع الغرقى واستغفر من دعائه أن لا يهلك مع الهلكى[1].

وهذا إبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه[2] لما تبين له أنه عدوٌّ لله وعزم على ذبح ولده[3] الذي هو قرّة عينه ومزنة غيثه وأحبّ الناس إليه، وأعزّهم عليه.

وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي شهد العدوّ والصديق بأنه أبَرّ الخلق بعامة أمته، دع عنك خاصة رحامته، حتى أن الله عاتبه على كثرة رحمته فقال: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾[4]، ترك

---

(١) كان لنوح عليه السلام أربعة أبناء: سام وحام ويافث ويام، آمن به منهم الثلاثة الأوائل، بينما تخلف يام وأقام على كفره، وما يشير إليه الإمام هنا استغفار نوح عليه السلام ربه لما كان قد سلف من دعوته لولده حينما قال له: ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن من الكافرين﴾.

(٢) ويدعي آزر من أهل كوثى من قرى سواد الكوفة تذكر المصادر التاريخية أنه كان حاكماً لنمرود الخاطىء على المشرق قبل عهد فارس. وقد استغفر إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم لأبيه طمعاً في إيمانه قبل أن يتبرأ منه، ولكن عندما تبين له إصرار أبيه على الضلال تبرأ منه وقطع صلته به، وبهذا المعنى جاء في محكم التنزيل: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياهُ فلما تبيّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾ [التوبة/١١٤].

(٣) لما كان قد رآه في منامه ـ ورؤيا الأنبياء حقّ ـ وهو ما أشار إليه القرآن بلسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ [الصافات/١٠٢]، والخطاب موجه لإسماعيل عليه السلام الذي هو من نسل هاجر، على خلاف ما يذهب إليه أهل الكتاب من أن الذبيح هو إسحاق، إذ من الثابت أن إسحاق لم يحضر إلى مكة، والحادثة المذكورة في القرآن وقعت بمكة، وإسماعيل عليه السلام، هو الذي كان مقيماً بها.

(٤) فاطر /٨.

الثناء على أمه وأبيه والذكر لهما والترحم عليهما وولع بذكر النجاشيّ وصلّى عليه[1]، وأثنى على سلمان الفارسي[2]، وأهدى ثمرات الدعاء الجميل إليه، وأمثالهما ممن لم يلتصق عِرْقه بعِرقه، ولم يلتحم نجره بنجره[3]. وقد أجمع الأصدقاء والأعداء والكفرة والبررة، على أن الأنبياء عليهم السلام، كانوا أعقل الناس، وأوقر الخلق، أما المسلمون فعقائدهم فيهم ظاهرة، وأما الكفار فيقولون: إنهم بحسن تدبيرهم ولطف دهائهم شرعوا شرائع، واستمالوا خلائق، ودان لهم من الناس عوالم، فكيف ترى هؤلاء العقلاء الحذّاق يعادون أرحامهم ويصادقون من لم تتصل وشيجة نسب بينه وبينهم؟؟ ويتركون ما في موالاة العشيرة

---

(١) النجاشي صاحب الحبشة في عصر النبوّة والنجاشي من الألقاب التي عرف بها أباطرة الحبشة وهو كلقب كسرى عند الفرس، وقيصر عند الرومان، وفرعون عند قدماء المصريين. واسم هذا النجاشي ـ أصحمة ـ وفاته في رجب سنة ٩ هـ، نعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه بالبقيع. وفي ذلك روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى وصفّ بهم وكبّر أربع تكبيرات. انظر: دلائل النبوة جـ ٤ ص ٤١٠، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.

(٢) صحابي معروف أصله من مجوس أصبهان، رحل من جيّان إلى الشام، فالموصل، فعمورية، ثم قصد الجزيرة العربية فاسترقه جماعة من بني كلب، لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقباء فأسلم، وأبى أن يتحرر بالإسلام من رقه، فأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سلمان منا أهل البيت». كان بحراً من العلوم لا ينزف، ومع أنه جُعل أميراً على المدائن فقد كان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به، وفاته سنة ٣٦ هـ/٦٥٦ م. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ علي محمد الشيباني المعروف بابن الأثير جـ ٢ ص ٣٢٨.

(٣) النَّجر والنِّجار والنُّجار: الأصل والحسب، ويقال: اللون.

من الانتصار عند الهضم، والسلامة من الظلم، ويتحمّلون مضارَّ عداوتهم، عوضاً عن منافع ولايتهم، لغير غرض يعود عليهم، ولا فائدة ترجع إليهم؟..

وثالثها: أنهم فقراء مساكين، تقتحمهم العيون وتزدريهم القلوب، ولا يغلب في ظن عاقل ولا فراسة حاذق، أن مَن الفقرُ صفته والنزاعُ لجميع مَن في العالم طَلِبَتُه، يساعد على إثارة الفتن وتهييج الحروب بين البشر، ولا يبلغ إلى أمل، ولا يزكو له عمل، كموسى وهارون حين أتيا فرعون لابسَين لِعَبا الصوف ومُرَقّعات المسوح منتقلين من مراعي الغنم إلى معارضات الملوك، مظهرين لمخاشنتهم، مفصحين بالترفع عليهم بغير عُدّة ولا مال، ولا قوة ولا رجال، فأتياه على هذه الحالة التي لا يؤبه لصاحبها ولا تمتلىء عينٌ من النظر إلى من جاء عليها، وجواهر التيجان تلتمع على جبينه، وأنطاع[1] ضرب الأعناق معدّة لمن أغضبه عن شماله ويمينه، فأتياه بأعظم ما يوجب ضرب أعناقهما، وأكبر ما يجرئه على قتلهما، لا ترتعد لهما فريصة[2]، ولا يخافان من الدنيا نقيصة.

وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، جاء إلى قريش، وقام في جاهلية العرب، وأنوفهم تعطس بالكبر، وألسنتهم لا تنطق إلا بالفخر، يرون أن يبيد أولهم وآخرهم ويفنى أصاغرهم وأكابرهم على أيسر عار يلمُّ بساحاتهم، وأهون نقص يدنو من أنسابهم، فجاء وحيداً من الناصر، فقيراً من المال، يسبّ آلهتهم، ويلهب أفئدتهم، ويُسفّه أحلامهم. يتيم

(١) واحدها نَطْعٌ: قطعة من الأدم تُضرب الرقاب عليها بالسيوف.

(٢) الفريصة: لحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد من الدابة. (مختار الصحاح: ص ٤).

قد مات أبواه واستُرضع في غير قومه[1] وكَفَلَهُ من شدّةِ فقرِ أبيه عمُّه[2]، فبينما هو يتيم مكفول في حجر من هبّ فخرُه مَهبَّ الجنوب والقبول[3]، إذ قام يعيب على كافله دينه ويسفه رأيه، ولا يستريب من شجعان العرب المشاهير أن عارضهم جميعاً، وانفرد بعداوتهم وحيداً.

ورابعها: حصول أغراضهم كما قال تعالى: ﴿والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين﴾[4]، ﴿وكانَ حَقَّاً عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾[5]؛ وكما ثبت في البخاري من حديث ابن عباس: «الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة»[6]، وكذلك وقع، ولله الحمد، فإن أحداً ممن طلب الدنيا والراحة والملك والرئاسة من الفلاسفة والمنجّمين والمشعوذين والمُرَجِّمين[7] بل من أهل الأموال والعشائر، وأرباب الخدم والعساكر

---

(١) معروف أن حليمة السعدية رضي الله عنها، أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الرضاع هي من بكر هوازن وليست من قريش.

(٢) كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم تسعة أعمام وستة عمات، توفي والده عبد الله قبل مولده، فكفله جده عبد المطلب، وبعد وفاته انتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب دون سائر أعمامه، لأن أبا طالب وعبد الله أخوان لأم واحدة، هي فاطمة بنت عمرو من بني مخزوم. انظر: السيرة النبوية لابن إسحاق جـ١ ص ١٦٤، دار الجيل ١٩٧٥م.

(٣) القبول من الرياح: الصبا، لأنها تستدبر الدبور وتستقبل باب الكعبة. (اللسان: قبل).

(٤) الأعراف /١٢٨.

(٥) الروم /٤٧.

(٦) وتمام الحديث عن ابن عباس، أن أبا سفيان بن حرب أخبره: (أن هرقل قال له: سألتك كيف كان قتالكم إياه فزعمت أن الحرب سجال ودول فكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة). انظر: فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني جـ٦ ص ٢٠، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر.

(٧) المرجمين: الذين يقولون بالظن والحدس ومنه قوله تعالى: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب﴾. انظر: [سورة الكهف الآية ٢٢].

من ملوك حمير[1] والتبابعة[2] والقياصرة[3] والأكاسرة[4] ما بلغ من ملك محمد صلى الله عليه وآله وسلم المعشار، ولا استدام له بعد موته ما استدام لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من ملك الأقطار والاستيلاء على البوادي والأمصار.

وهذا نوح عليه السلام الفقير الضعيف القليل الناصر، الذي كان يُضرب ويُشتم ويُسبُّ ويُهان فلا يجد ملجأً ولا مَعاذاً ولا مُنقذاً ولا مُجيراً، نبعت له الأرَضُون عيوناً، والسموات غيوثاً، حتى كان من عجيب غرق قومه ما كان، ولم يستطع دفع ما جاء به إنس ولا جانّ. ومن أدل ذلك على الله، الخسف بأهل السبت[5] من اليهود قردة. وذلك مما يحصل به العلم الضروري لمن شاهده أو تواتر له، لأن تحول الصورة إلى صورة أخرى لا يكون بالطبع، ولا تدخل فيه شبهة لأهل الكفر.

وخامسها: زهدهم في الدنيا واطّراحهم للأهواء وقلقهم من هول المعاد الأخروي. وتَقَطُّع نياط قلوبهم من الخوف للعذاب السرمدي، وهو شيء عُلم منهم أنه جدٌ لا مزاح فيه ولا هزل، وحقٌّ لا تَصَنُّع فيه ولا تكلّف. وكيف والتكلف لا تخفى آثاره، ولا تستمرّ لصاحبه أحواله؟ زفراتهم كانت مُتَصعّدة، ونيارُ خوفهم لم تزل متوقّدة، ومدامع عيونهم لم

---

(١) دولة استمدت اسمها من قبيلة حمير إحدى قبائل العرب القحطانية المنسوبة بدورها لحمير بن سبأ، امتدت حضارتها نحو سبعة قرون، كانت ريدان ـ ظفار ـ عاصمتها انتهى عهدها مع بداية عصر النبوة.

(٢) واحدهم تبع وهو لقب من ألقاب ملوكها.

(٣) لغة الجمع مفردها قيصر من ألقاب ملوك الروم قبل الإسلام.

(٤) مفردها كسرى لقب اختص به ملوك فارس.

(٥) أطلق هذا الاسم على اليهود أتباع النبي موسى لأن الله تبارك وتعالى فرض عليهم تقديسه إذ يقول في محكم التنزيل: ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾ أي اليهود. النحل/١٢٤.

تبرح مترقرقة، وعلى وجنات خدودهم متدفقة، وعيونهم غائرة، وعزماتهم باترة[1]، وأجسادهم ناحلة، ونفوسهم عن الدنيا مائلة، وشفاههم من ظمأ الهواجر ذابلة، وألسنة أحوالهم في خطاب مولاهم قائلةً:

وقَدْ صُمْتُ عن لذّات نفسي كلّها   ويومُ لقاكُم ذاك فِطْرُ صيامي[2]

كان عيسى عليه السلام دابته رجلاه، وسراجه القمر، وفراشه المدر[3]، ومتاعه الشجر، وداره الأرض. ترى خضرة الشجر من شفيف بطنه. ولا تنقض الشدائدُ عقدة عزمه.

وكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي حتى تورّمت قدماه، ويُسمع لصدره أزيز كأزير المِرْجَل[4]، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[5].

ولما أخطأ داود عليه السلام كان يبكي وينوح حتى نبت العشب من دمعه المسفوح، ونقش خطيئته على كفه، وحزن حزن الثكلى على ذنبه[6].

---

(١) باترة: قاطعة. انظر: لسان العرب (مادة/بتر).

(٢) البيت من البحر الطويل.

(٣) قطع الطين اليابس الذي لا رمل فيه واحدته مَدَرة. انظر: النهاية جـ ٤ ص ٣٠٩.

(٤) قدر من النحاس أو الحجارة يوضع على النار ويطبخ فيه.

(٥) روى الحديث المغيرة بن شعبة وعائشة رضي الله عنها، وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول جـ ٦ ص ٦٤ وما بعدها. المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

(٦) قد يفهم البعض هذه الحادثة من خلال ما تذكره بعض المصادر التاريخية من أن داود سأل ربه أن يعطيه ما أعطى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحى إليه: إن آباءك ابتُلوا بلايا لم تبل بها، فسأله داود أن يبتليه بمثل ما ابتلاهم فيه على أن يعطى مثلما أعطوا، فأوحى إليه: إنك مبتلىً فاحترس. وجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب وهو قائم يصلّي فمدّ يده ليأخذه، فتنحى فتبعه فطار من الكوّة، فنظر داود أين يقع فيرسل من يأتيه به، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها وهي غاية في الجمال، وما ان أبصرته ينظر إليها حتى ألقت شعرها فاستترت به، =

فليت شعري أيّ غرض يقَدّر أنه يحصل لهم، ويظنُّ أنه أرَبُهم حتى قطَعوا أعمارهم على هذه الطريقة، وأداموا تحَمُّلَهم لهذه الأعباء الثقيلة؟. أطَلَبُ العيش في الدنيا ورجاء الظفر بالأهواء؟.

فقد عاش سقَطُ الناس بأيسر من ذلك، ونِيْلَت بأهونِ سَعْيٍ ملاذُّ المعايش، وقد ملكوها على ما يأتي بيانه فلم يلتفتوا إليها، ورغبوا عنها ولم يرغبوا فيها. وتنزَّهت عنها شرائف أحوالهم. وأنشد لسانُ حالهم:

تَجـرَّدْ عن الـدنيـا فـإنـكَ إنّمـا خَرجْتَ إلى الدنيا وأنت مُجرَّدُ[1]

وسادسها: أن جمعاً منهم تمكّنوا من الـدنيا، واستـولوا على

= وعلم أن لها زوجاً، فبعث إليه وكان اسمه «أهريا» فأرسله إلى الحرب لمقاتلة عدوٍّ له، فقتل بإحدى المعارك، وتزوج داود امرأته، وكان له قبل ذلك تسع وتسعون امرأة. فأرسل الله له ملكين في صورة أنيسين، وطلبا من حراسه أن يقابلاه، وحالمارآهمافزع منهما فقالا: لا تخف إنما نحن (خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط واهدنا سواء السراط)، قال: قُصّا عليّ قصتكما، فقال أحدهما: (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة)، وهو يريد أن يأخذها فيكمل بها نعاجه مائة. فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة. قال داود: وهو كاره؟ قال: وهو كاره. فقال داود: إذاً لا ندعك وذاك وإلا ضربناك، فقال: ما أنت على ذلك بقادر، وأنت يا داود أحقّ أن تضرب حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به حتى قتل وتزوجت امرأته. فأسقط بيد داود، وعرف ما قد وقع فيه من الخطأ [الطبري جـ١ ص ٤٧٩ وما بعدها]. أقول: هذه الرواية محض افتراء، وهي من الإسرائيليات ولا يمكن أن تتفق في أحداثها مع منطق النبوة، وأما خطأ داود الذي يشير إليه الإمام هنا فيكمن بحكمه عليه السلام على أحد الخصمين بالاستناد إلى دعوى أحدهما دون أن يسمع أقوال الآخر، وهذا ما يؤكده عتاب الله سبحانه له في الآية التي تقول: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ص/٢٦ انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٧٨، محمد أحمد الأنصاري القرطبي، القاهرة ١٩٦٥.

(١) لم أعرف قائله وهو من البحر الطويل.

ما يحبّ الناس منها، فلم تتغيّر لهم طريقة، ولم تتحول لهم سجيّة. ملك سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده[1]، فخدمته الطير وحشرت معه، وحملته الريح على متن الهواءوسخّرت له، ودانت له ملوك الإنس؛ وخضعت له عفاريت الجنّ؛ وكان البساط يحمله في أرجاء الأجواء مستقرّاً على متن الريح الخفاقة والهواء. وكانت الطير تظَلّه؛ وكانت الأرض في يده وكانت أوامره مطاعة، والخلائق له طاعة. ومع ذلك كان يأكل من كدّ يده؛ ويتواضع على عظيم ملكه، حتى اختار من الحِرَفِ أهضمها للنفس وأقمعها لجامح الهوى، وهو الخوص، أي: الحصر الذي يترفع عنه أكثر السوقة، ولا يرتضيه لنفسه من له أدنى عزّة. فما تراه يريد بهذا؟ وإلى أيِّ شيء من الدنيا يتوصّل به؟.

وسابعها: قوّة يقينهم بمواعيد الله وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله، وإن كان في ظاهره، كالجناية على النفس، والإلقاء بها إلى التهلُكة، كقول نوح وحده لقومه مع كثرتهم وقوتهم: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إليَّ ولاَ تُنْظِرون﴾[2] ونحو ذلك قال هود[3].

ومن ذلك إلقاء أمِّ موسى له في البحر وهو طفل، ومنه نَهْي رسول

---

(١) سليمان عليه السلام، هذا هو أحد أنبياء بني إسرائيل، من سبط يهوذا بن يعقوب، رزقه الله النبوة والملك وجمع له بينهما، كما جمعهما لوالده داود من قبله، وكان عظيم الحكمة من هنا، وصفته بعض المصادر بالحكيم، فعرف بسليمان الحكيم، وما يذكره الإمام إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب. والشياطين كلّ بناء وغواص، وآخرين مقرّنين بالأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ ص الآيات/٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩.

(٢) يونس /٧٣.

(٣) وصف قوم هود عليه السلام، وهم عاد إرم كانت مساكنهم في أرض الأحقاف من جهة اليمن. أقول: وصفوا بالعمالقة وكانوا إذا مشوا على الأرض اهتزت تحت أقدامهم لثقلهم وضخامة أجسامهم، وما يشير إليه المؤلف هنا قول هود لهم: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبّارين. فاتقوا الله وأطيعون﴾ الشعراء /٣٠ و ٣١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه عن حراسته بعد قوله تعالى: (واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[1].

وثامنها: أنها ظهرت عليهم خوارق العادات، وبواهر المعجزات من غير ممارسة لشيء من علوم الطبائعيين[2] والمرتاضين[3]، والمتفلسفين والمنجّمين والمتكهّنين المصاحبين للجنّ والشياطين، وأخبروا عن الغيوب واتصلوا في خرق العادات إلى مرتبةٍ قَصُرَ عنها أهل الدّراية في فنون هذه العلوم.

هذا الكليم فعل مع السحرة ما فعل، حتى كانوا هم المِقرّين له، والشاهدين بأن الحق معه، وهم ألوف يحصل بخبرهم العلم، ويستحيل تواطؤهم على الكذب وكيف وسيف فرعون على أعناقهم مسلول؟ ودفْعُ كيده بسوى الله غيرُ مأمول؟.

وهذا عيسى عليه السلام أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص[4].

وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، جاء بنوع من الإعجاز لا يُتَصوَّر فيه السحر، ولا تُعقَل فيه التعمية، قرآنٌ بَلِيَ قَشيب الدهر وإعجازُه جديد، وهَرِمَ شباب الزمان ورونقه إلى مزيد، فأسكت به

---

(١) المائدة / ٧١.

(٢) يقصد بهم أتباع الفكر الطبيعي من الفلاسفة الذين توجهوا إلى الطبيعة يستلهمون منها تفسيراً للوجود ويعد أنكساغوراس وأنبادوكليس وديموقريطس من أقدم مؤسسي هذا الاتجاه في الفكر العالمي.

(٣) وهم أتباع الفكر الرياضي من الفلاسفة الذين تصوروا العالم تصوراً رياضياً بعد أن استرعاهم التقابل العجيب بين الأعداد والأشكال والأصوات، ويعد فيثاغوراس من القرن السادس قبل الميلاد، وهو فيلسوف ورياضي يوناني، زعيم مدرستهم ومذهبهم الفكري.

(٤) يدل على ذلك قوله تعالى: (وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله) الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

مَصَاقعة[1] العرب العرباء، والمفلقين من البلغاء والفصحاء والشعراء والخطباء، قد مضى الآن إحدى وثمان مائة سنة[2] ولم يأت له فيها معارض. على أن هذه المدة الطويلة منذ هاجر صلى الله عليه وآله وسلم، مرّت على سَحَرةِ الكتابة والخطابة وتقَضّت عن مهرة البراعة واليراعة، أُسَاة[3] أساليب الكلام إذا اعتل، وبناة أساسات البيان إذا اختل:

يرمُون بالخطب الطوال وتارة   وحي الملاحظ خيفة الرقباء[4]

كان واصل بن عطاء[5] يتجنب في كلامه الراء، ولا يتبلد في محافل الكبراء قيل له: كيف تقول: ركب فرسه وجرّ رمحه وأمر الأمير بحفر بئر على قارعة الطريق؟ فقال على البديهة: أقول: اعتلى جواده، وسحب ذابله، وأوجب الخليفة نقب قليب على الجادة. وفيه يقول بعضهم:

ويجعل البر قمحاً في تصرفه   وخالف الراء حتى احتال في الشعر[6]

ولم يطق مطراً والقول يعجله   فعاد بالغيث إشفاقاً من المطر

---

(١) لغة الجمع مفردها: مِصْقع وهو البليغ الماهر في الكلام. وفي الحديث: شر الناس في الفتنة الخطيب المصقع. لسان العرب مادة/صقع.

(٢) عن الفترة التي كان بها الإمام محمد بن إبراهيم الوزير حياً.

(٣) أساة: جمع آس وهو الطبيب. واليراعة: القصبة.

(٤) من البحر الكامل.

(٥) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزّال مولده بالمدينة سنة ٨٠ هـ/٧٠٠م من أئمة البلغاء والمتكلمين، وهو رأس المعتزلة، كان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً على ما سيرويه الإمام بعد قليل، وكانت تأتيه الرسائل وفيها الراءات فإذا قرأها أبدل كلمات الراء منها بغيرها. ومن أقوال الشعراء فيه:

أجعلتَ وصلي الراءَ لم تنطقْ به   وقطعتَني حتى كأنك واصل

وفاته بالبصرة عام ١٣١ هـ/٧٤٨م. شذرات الذهب جـ١ ص ١٨٢.

(٦) البيتان من البحر البسيط.

وخطب واصل خطبة طويلة على البديهة لم ينطق فيها بالراء في محفل عظيم عند بعض الأكابر وقد قامت الخطباء فقال فيه بشار[1]:

تكلّف القول والأقوامُ قد خَطَبوا   وحبَّروا خُطَباً ناهِيكَ من خُطَب[2]
فقـامَ مُـرْتجـلاً تَغْلي بـديهتُـهُ   كمِرْجَل القَيْن لَمّا حُفَّ باللَّهَبِ
وجانبَ الراءَ لم يَشْعُرْ به أحَـدٌ   قبلَ التصفُّحِ والإغراقِ في الخطبِ

وكان الجاحظ[3] بليغاً في الفصاحة حتى كان يقال: من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به، وقام سحبان[4] يخطب في حضرة معاوية من عقيب صلاة الفجر إلى أن دخل وقت الظهر في معنى واحد لم يخرج إلى غيره ولا تنحنح ولا تلكّأ ولا تأمّل ولا تروّى، فلما أقيمت

---

(١) بشار بن برد العُقيلي بالولاء، نسبته إلى امرأة عقيلية أعتقته من الرّق وكان ضريراً، نشأ بالبصرة وعاصر ابن عطاء، اتهم الزندقة فمات ضرباً بالسياط سنة ١٦٧ هـ/٧٨٤ م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ابن خلكان جـ ١ ص ٢٧١، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت.

(٢) الأبيات من البسيط ولم أجدها في ديوانه [ط عاشور] وهي في الأعيان ٣/٢١٩.

(٣) وتمام اسمه: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني أبو عثمان وهو من كبار أئمة الأدب مولده بالبصرة سنة ١٦٣ هـ/٧٨٠ م، كان مشوّه الخلقة قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م.
تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت جـ ١٢ ص ٢١٢.

(٤) سحبان بن زفر بن إياس الوائلي من باهلة، من أشهر خطباء العرب في الجاهلية والإسلام، ضرب به المثل في البيان، كان إذا خطب يسيل عرقاً، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ. أقول: ربما كان من معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا البليغ المفوه أسلم في زمن النبي دون أن يراه أو يجتمع به وأقام في دمشق أيام معاوية حتى أدركته الوفاة بها سنة ٥٤ هـ/ وعمره مائة وثمانين سنة. ويذكر أن سحبان هذا أول من آمن بالبعث في الجاهلية وأول من توكأ على عصا من العرب وأول من قال منهم: «أما بعد» في الخطبة. انظر: كتاب الأمثال ـ القاسم بن سلام ص ٣٦٨، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق.

الصلاة قال له معاوية: الصلاة الصلاة، فقال: وهل نحن إلا في تسبيح وتقديس، وتمجيد وتحميد وتعظيم، وسرد شيئاً كثيراً على هذا الأسلوب، فقال له معاوية: أنت أخطب العرب! فقال: بل أخطب الجن والإنس ثم أنشده:

لقد علمت عليا معدٍّ بأنني إذا قلت أما بعد أني خَطيبها[1]

فانظر كيف تقضت السنيُّ والأعوام، وتصرمت الليالي والأيام. ولم يأت أحد من هؤلاء البلغاء بمثل هذا القرآن، ولا بسورة من مثله. تصديقاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قوله عز سلطانه: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾[2].

وتاسعها: أن أصل جميع البشر وهو آدم عليه السلام، أول من ادعى هذه الدعوى، وسلك هذه السبيل، ولا حاجة له إلى الكذب والتزوير؛ إذ لا أحد معه فيحتال عليه ويخدعه ليأخذ مما لديه، إلا من هو طوعه وفرعه ومُسْعده ومتبعه. وقد روى الزمخشري[3] عن ابن عباس: أنَ الخلق كانوا أمة واحدة على الحق لا اختلاف بينهم عشرة قرون من بعد آدم عليه السلام إلى وقت نوح عليه السلام[4] ذكره في تفسير قوله: ﴿ كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ ﴾[5] وذكر وجهاً آخر وأشار إلى ضعفه.

---

(١) البيت من البحر الطويل وفي رواية ثانية:

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت: أما بعد أني خطيبها

انظر: كتاب الأمثال ص ٣٦٨.

(٢) الإسراء /٨٨.

(٣) محمود بن عمر الخوارزمي صاحب الكشاف وأساس البلاغة مشهور ومعروف.

(٤) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ ١ ص ١٩٤، مطبعة الاستقامة بالقاهرة

(٥) البقرة / ٢١٣.

وعاشرها: عدم اختلافهم مع أن الذي أخبروا به أمر غير مشاهد لهم، بل أمر تحيّر فيه الفطناء، وتبلّد فيه الأذكياء، وخبطت العقول فيه خبط عشواء، وطلبت تحقيقه فلم ترجع بطائل جدوى. ألا ترى أن الفلاسفة اختلفوا أشدَّ الاختلاف على ما حققه الجاحظ في كتاب العبر والاعتبار[1]، وغيره من أكابر علماء الإسلام. وهؤلاء الأنبياء عليهم السلام ما كانوا من أهل الأنظار الفلسفية، ولا أرباب الهندسات الخفية. ولا مخالطين لأصحاب الدروس المنطقية، ولا ملتفتين إلى المؤاخذات[2] الجدلية بل سالكين مسلك المتعبدين من العامة. ثم أتى كل واحد منهم في العلوم الإلٰهيات بعقائد إليها مرجع كل متكلم، وقصارى نظر كل فيلسوف، ومنتهى كل مدقق. خائضين من اللطائف الإلٰهية، والصفات القدسية، والأحكام الأزلية، في بحار تقف الحكماء شاخصة على سواحلها ومحارات لا تعرف مقل العقول ماهياتها.

وحادي عشرها: أن من سلك طريقهم، وقبل نصيحتهم، وصبر صبرهم ظهر عليه من الكرامات قريب مما ظهر عليهم، بل ربما ظهر على بعض الأولياء، مثل معجزات الأنبياء، كمريم، عليها السلام، في حملها وطعامها وظهور المَلَك لها ورطب نخلها، وأصحاب الكهف في منامهم وتغيّر عادات الدهر في صحة أجسادهم. ومثلما تواتر معناه عن رهبانية الأمم الخالية والصالحين من هذه الأمة المرحومة ظهوراً لا يحتاج إلى إقامة البرهان، ولا يفتقر إلى إيضاحٍ وبيان.

وثاني عشرها: عجز من عاصرهم عن إظهار كذبة واحدة لواحد

---

(١) من الكتب التي صنعها الجاحظ عمرو بن بحر وهو بعنوان: العبر والاعتبار في النظر في معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع. والكتاب حسبما أعلم لا زال مخطوطاً.

(٢) يقصد المناظرات وما يرافقها من مساجلات علمية كانت تعقد على شكل حلقات في الجوامع والمساجد ويؤمها علماء الكلام من مختلف الأمصار وعلى اختلاف المشارب.

منهم في جميع عمره من جميع الأمور التي ادعاها، هذا وإن أكثر الشواهد لهم أنهم ادعوا أمراً تشهد بصدقهم فيه أنواع المخلوقات، وتفصح بالاحتجاج لهم بدائع المصنوعـات. من سماءٍ مرفوعة، وأرض موضوعة، ونجوم في مقدرات منازلها سيارة، وعلى محكمات أفلاكها طوارة[١]، زينة تجتليها أعين المستعبرين، ومصابيح تـوهج أنـوارها للمتفكرين. منها ثواقب وثوابت ومعالم ورواجم، وأقمار نوارة، وبحار موّارة، وأرواح خفاقة، وأمواه دفاقة، وسحاب ثقال مطارة، وعيون سيّالة وقطارة، وأجزاء متفقة، وأنهار مترقرقة، وأودية غير منسدة المخارق، نافذة من المغارب إلى المشارق، وحيوانات حسَّاسة، منها في الأجواء طيارة، ومنها على الأرضين سيارة، ومنها أمم مكلفة، ومنها عوالم مسخرة، وأرزاق مقدرة، وأشجار وثمرة وفواكه ومزارع، ومضار ومنافع، ورسل في خلال ذلك تترى، وكتب منزلة لا تزال تقرا، وعبر وغير[٢]، ونقم ونعم، وخلق منهم ضاحك وباكي، ومغبوط بالنعمة وشاكي، ومهنأ ومعزى، ومعافى ومرزّى، ومحسود ومرحوم، وظالم ومظلوم.

هذا والموت يأخذهم جيلاً جيلاً، والدهر يبليهم قليلاً قليلاً، يفرق بين الخليل وخليله، ويستخرج الإنسان من بين قبيله، فكل حيٍّ فهو غداً مَيْت. فما أحسن البيت:

وكـلّ أليفٍ فـاقـدٌ لأليـفـه ومعتـرفٌ بالبين حتى البهـائم[٣]

وأحسن منه قول العلامة الزمخشري رحمه الله:

---

(١) أي دائرة وقد قالت العرب: فلان يطور بفلان إذا كان يحوم حواليه ويدنو منه. لسان العرب مادة/طور.

(٢) أحوال الدهر المتغيرة ومنه حديث الاستسقاء: من يَكْفُرِ الله يلق الغِيَر، والغير هنا تغير الحال من الصلاح إلى الفساد.

(٣) البيت من البحر الطويل.

وجَذْتُكِ من مسِّ الفراقِ فَرُوقةً وكلٌّ فريق مُعْرَضٌ لشَتات[1]
فِراقان للأحباب لا بدَّ منهما فراقُ بِعادٍ أو فِراق مَمات

ومن أراد استقصاء اليسير من عجائب صنع الله التي تحيرت في أقلّها نهايات علوم العلماء، وتبلّدت في أصغرها أذهان الأذكياء، فعليه بمطالعة كتاب العبر والاعتبار للجاحظ وكتاب الطب الكبير[2] للفخر الرازي[3]. فسبحانك اللهم ما أعظم ما نرى من خلقك، وما أصغره في جنب قدرتك، وما أهول ما نشاهد من سلطانك، وما أحقر ذلك في جنب ما غاب عنا من ملكوتك، ما أصدق ما قلت في كتابك، وأحق ما وصفت في كلامك، حيث قلت يا رب العالمين، وأنت أصدق القائلين: (وَلَوْ أَنَّ ما في الأَرْضِ مِنْ شَجَرةٍ أَقْلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيم)[4].

واعلم أنا لما ذكرنا أن قرائن أحوال الأنبياء عليهم السلام تقضي بصدقهم، وتضطر العقول إلى الجزم بصحة أديانهم، مجملين غير مفصلين، مشيرين إلى الجمل اليسيرة غير مستقصين. أردنا أن نذكرَ من

---

(١) البيتان من الطويل.

(٢) ذكر ابن كثير الدمشقي أن للفخر الرازي ما يزيد عن مائتي مصنف من مختلف الفنون والعلوم، والكتاب المشار إليه هنا لم أقف له على ذكر، وربما جاء بغير هذا الاسم. البداية والنهاية جـ١٣ ص ٥٥ مكتبة المعارف، ط. ٤، ١٩٨٢.

(٣) هو أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر التيمي البكري الرازي قرشي النسب أصله من طبرستان ومولده بالري عام ٥٤٤ هـ /١١٥٠ م له مؤلفات هامة لعل من أكثرها شيوعاً مفاتيح الغيب في تفسير القرآن، وفاته في هراة سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢١٠ م، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢١.

(٤) لقمان / ٢٧.

تفاصيل أحوال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، نُكتاً[1] يسيرة، منتزعات من مصنفات كثيرة حتى يُعرف أن لكل واحد من الأنبياء ما يساويها أو يدانيها، وأنه قد ظهر على كل واحد منهم من القرائن ما يعلم أهل وقته بها أنه صادق، ولأحوال السحرة وأهل التمويه مفارق، حتى تقوم بها عليهم الحجة. فتأمل ذلك ينشرح صدرك وتزداد بصيرتك وترسخ عقيدتك. ولنكتف في ذلك بما أورده فخر الدين الرازي في كتابه الأربعين في أصول الدين[2] وهو قوله:

«واعلم أن الرسول عليه السلام كانت له معجزات كثيرة سوى القرآن، والعلماء أوردوا في ذكرها كتباً وضبْطُ القول فيها أن نقول:

معجزاته، عليه السلام، قسمان: حسيّة وعقلية. أما الحسّية فثلاثة أقسام: أحدها: أمور خارجة عن ذاته. وثانيها: أمور في ذاته. وثالثها: أمور في صفاته.

أما القسم الأول: وهو الأشياء الخارجة عن ذاته، فهو كانشقاق القمر[3]، واجتذاب الشجر إليه[4]، وتسليم الحجر عليه[4]، ونبوع الماء

(١) النُّكْتَةُ الأثر القليل كالنقطة، النهاية جـ ٥ ص ١١٤.

(٢) ألفه الإمام الرازي لولده محمد، ورتبه على أربعين مسألة من مسائل الكلام، ولخصه القاضي سراج الدين الأرموي بمؤلف سماه: اللباب. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جـ ١ ص ٦١. حاجي خليفة، وكالة المعارف ١٩٤١.

(٣) حول هذه الحادثة روى أنس بن مالك: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين. أخرج هذا الحديث كل من البخاري في الصحيح عن عبد الله بن محمد، ومسلم عن زهير بن حرب، كلاهما عن يونس بن محمد. انظر: دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٦٢.

(٤) روايات كثيرة قيلت بهذه المناسبة لعل من أشهرها تلك التي ذكرها عبد الملك بن عبد الله ابن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة الثقفي: أن رسول الله ﷺ حينما أراده الله بكرامته كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسّر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة =

من بين أصابعه[1]، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل[2]، وحنين الخشب[3]، وشكاية الناقة[4]، وشهادة الشاة المشوية[5]، وإظلال

= وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت ﷺ حوله، فلا يرى إلا الشجرة والحجارة. انظر: السيرة النبوية جـ ١ ص ٢١٧.

(١) أخرج البخاري في كتاب المناقب عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج لبعض مخارجه ومعه ناس من أصحابه فانطلقوا يسيرون فحضرت الصلاة فلم يجد القوم ماءً يتوضؤون فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير فأخذه رسول الله ﷺ يتوضأ ثم أمرَّ أصابعه الأربع على القدح، ثم قال للقوم: «هلموا فتوضؤوا»، فتوضأ القوم حتى بلغ فيما يريدون من الوضوء، وسئل أنس كم بلغوا؟ قال: سبعين أو نحو ذلك. انظر: دلائل النبوة جـ ٤ ص ١٢٤.

(٢) الأحاديث الدالة على ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ به من البركة فيما دعا فيه من الأطعمة كثيرة، منها ما رواه أبو بكر، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب، وأنس بن مالك؛ وربما كان أشهرها حديث أبي طلحة زوج أم سليم بنت ملحان، وهو حديث مطول خلاصته أن النبي ﷺ أطعم ما يزيد عن ثمانين جائعاً من أصحابه من كِسَرٍ من خبز وتمرات. انظر: المرجع السابق جـ ١ ص ٣٦٢ وما بعدها.

(٣) قال جابر بن عبد الله: كان النبي ﷺ يقوم إلى جذع نخلة فيخطب قبل أن يوضع المنبر، فلما وضع المنبر، صعد رسول الله ﷺ فحنَّ ذلك الجذع حتى سمعنا حنينه، فأتاه رسول الله ﷺ فوضع يده عليه فسكن. ـ انتهى ـ. أخرج هذا الحديث البخاري في كتاب المناقب، رقم ٥٠٥، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في الخطبة على المنبر. وانظر: دلائل النبوة جـ ٢ ص ٥٥٦.

(٤) ومن الأحاديث الدالة على صدق نبوته ﷺ بهذا المعنى ما رواه جابر بن عبد الله، وعبد الله ابن أبي أوفىٰ وذكرهما السيوطي في الخصائص الكبرى، وكذلك ما رواه أبو جعفر عبد الله بن جعفر عن النبي ﷺ، وأخرجه مسلم برقم ٣٤٢ بإسناد. انظر: رياض الصالحين باب آداب السير والنزول والمبيت، نشر دار المأمون للتراث.

(٥) ربما قصد الشاة التي أهديت للنبي ﷺ عندما فتح خيبر وهي شاة مسمومة أتت بها امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث تريد بها قتله ﷺ، واعتبر كشفه عن ذلك من الدلائل الكبرى على نبوته ﷺ حول أحداث هذه المسألة. انظر: تاريخ الطبري جـ ٣ ص ١٥.

السحاب قبل بعثته[1]، وما كان من حال أبي جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه[2]، وما كان من شاة أمِّ معبد حين مسح يده على ضَرعها[3].

---

(١) روى أبو موسى الأشعري، أن أبا طالب خرج إلى تجارة له إلى الشام، وخرج معه رسول الله ﷺ وكان في الثانية عشر من عمره، ومعهم أشياخ من قريش فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام كان مرورهم على مقربة من صومعة بحيرى الذي كان إليه علم النصرانية في حينه، فلما أشرفوا عليه حلّوا رحالهم، فخرج إليهم وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إنما رأى هذه المرة ثمة فتى بين القوم، وغمامة تقية حرّ الشمس من دونهم، فصنع لهم طعاماً كثيراً ودعاهم إليه، وفي مجلسه هذا تأكد له بأن الغلام سيكون له شأن عظيم، فقال لأبي طالب بعد أن عرف أن الغلام هو ابن أخيه: ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه لَيَبْغُنَّه شراً... إلى آخر الرواية. انظر: دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٤ وما بعدها، وكذلك السيرة النبوية جـ ١ ص ١٦٦ وما بعدها.

(٢) كان أبا جهل قد توعد النبي ﷺ بقوله: لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته نضخت به رأسه. فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً، وجلس لرسول الله ﷺ بناحية من مصلاه، وحينما جاء النبي ﷺ قام يصلي وقريش في أنديتها تنتظر ما أبو جهل فاعل، فلما سجد النبي ﷺ احتمل أبو جهل الحجر وأقبل به نحوه، ثم ما لبث أن ارتد منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على الحجر حتى قذفه من يده، فقام إليه رجال من قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهمّ بي أن يأكلني. روى هذا الحديث عبد الله بن عباس في معرض إثبات البراهين الدالة على نبوته ﷺ. انظر: السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٦٤.

(٣) روى حبيش بن خالد صاحب رسول الله ﷺ قتيل البطحاء يوم الفتح وهو أخو عاتكة بنت خالد فقال: إن رسول الله ﷺ حين أخرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولى أبي بكر عامر بن مهيرة ودليلهما الليثي عبد الله بن الأريقط مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين مستنين فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم نحرها، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: «ما هذه الشاة يا =

وأما القسم الثاني: وهو الأحوال العائدة إلى ذاته، فهو مثل النور الذي كان ينتقل من أبٍ فأب، إلى أن خرج إلى الدنيا، وما كان من الخاتم [١]، وما شوهد من خلقته وصورته التي يحكم علم الفراسة [٢] بأنها دالة على نبوته.

وأما القسم الثالث: وهو ما يتعلق بصفاته فهي كثيرة. ونحن نشير إلى بعضها:

فالأول: أن أحداً ما سمع منه لا في مهمات الدين ولا في مهمات الدنيا كذباً البتة، ولو صدر عنه الكذب مرة واحدة، لاجتهد أعداؤه في تشهيره وإظهاره.

= أم معبد؟»، قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: «أبها من لبن؟»، قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟»، قالت: بأبي وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها، وسمى الله تعالى، ودعا لها في شاتها فتفاجّت عليه ودرّت واجترّت، ودعا بإناء يُرْبضُ الرهط، فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب آخرهم رسول الله ﷺ ثم أراضوا ثم حلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها ثم بايعها وارتحل عنها...

أخرج هذا الحديث الطبراني والحاكم في المستدرك مطولاً وهو صحيح الإسناد. انظر: دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٧٨ وما بعدها.

(١) وردت أحاديث كثيرة في صفة خاتم النبوة وهي على كثرتها متقاربة من حيث وصفها له فقد وصفه البعض بقوله: مثل زِرِّ الحجلة. أي بيضها، ووصفه غيره كأنه جمع فيه غيلان سود كأنها الثآليل، وفي تاريخ ابن عساكر: مثل البندقة وغير ذلك، والأحاديث الواردة بهذا الخصوص ذكرها البخاري في كتاب الوضوء، ومسلم في كتاب الفضائل، وأحمد في مسنده، والترمذي في كتاب المناقب؛ ومن أراد أن يتوسع فليرجع إلى هذه الأحاديث في مظانها.

(٢) هو العلم الذي تعرف منه أخلاق الناس من خلال أحوالهم الظاهرة والاستدلال بهذه الأحوال عن الخلق الباطن. انظر: أبجد العلوم جـ ٢ ص ٢٩٦ ـ صديق حسن القنوجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت بلا تاريخ.

الثاني: أنه ما أقدم على فعل قبيح لا قبل النبوة ولا بعدها.

الثالث: أنه لم يفرَّ عن أحد من أعدائه لا قبل النبوة ولا بعدها وإن عظم الخوف مثل يوم أُحد[1] ويوم الأحزاب[2]. وهذا يدل على أنه كان قوي القلب بمواعيد الله حيث قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾[5].

الرابع: أنه كان عظيم الشفقة والرحمة على أمته، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّم﴾[9].

---

(١) إشارة إلى يوم ١١ شوال سنة ٣ هـ/ آذار ٦٢٤ م وهو اليوم الذي جرت فيه أحداث معركة أحد بين المسلمين بقيادة النبي ﷺ ومشركي قريش وعلى رأسهم أبي سفيان بالقرب من جبل أحد بنواحي المدينة المنورة، في هذا اليوم عظم الابتلاء على المسلمين وكان جندهم لا يتجاوزون الـ ٧٠٠ رجل، بينما كان عدد المشركون ٣٠٠٠ رجل قتل منهم ٢٣ مقابل استشهاد ٧٠ رجلاً من المسلمين من بينهم حمزة عم النبي ﷺ.

(٢) إشارة إلى معركة الخندق التي جرت أحداثها في السنة الخامسة للهجرة بين المسلمين من جهة، وقريش ومن تحالف معها من القبائل واليهود من جهة أخرى، وعرفت هذه المعركة بالتاريخ الإسلامي ـ بيوم الأحزاب ـ نتيجة لهذا التحالف وإليها تشير الآية: ﴿وقال الذين آمنوا يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾.

(٣) المائدة / ٧١.

(٤) الأنفال / ٦٤.

(٥) التوبة / ٤٠.

(٦) فاطر / ٨.

(٧) الكهف / ٦.

(٨) الحجر / ٨٨.

(٩) التوبة / ١٢٨.

الخامس: أنه عليه السلام كان في أعظم الدرجات في السخاوة حتى أنه تعالى عاتبه عليها فقال: (ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ)[1].

السادس: أنه ما كان للدنيا في قلبه وقع وإن قريشاً عرضوا عليه المال والزوجة والرئاسة حتى يترك هذه الدعوى فلم يلتفت إليهم.

السابع: أنه كان في غاية الفصاحة، كما قال: (أُوتيتُ جوامع الكلم)[2].

الثامن: أنه بقي على طريقته المرضية في أول عمره إلى آخره والكذاب المزوّر لا يمكنه ذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى: (قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ وَمَا أَنا مِنَ المُتَكَلِّفين)[3].

التاسع: أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الدنيا والثروة في غاية الترفع، ومع الفقراء والمساكين وأهل الدين في غاية التواضع.

العاشر: أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان في كل واحدة من هذه الصفات والأخلاق، في الغاية القصوى من الكمال، كان مستجمعاً لها بأسرها، ولم يتفق ذلك لأحد من الخلق فكان اجتماعها في ذاته من أعظم المعجزات.

وأما المعجزات العقلية فهي ستة أنواع:

النوع الأول: أنه صلى الله عليه وآله وسلم إنما ظهر من قبيلة ما كانوا من أهل العلم، بل كان من بلدة ما كان فيها أحد من العلماء بل

---

(١) الإسراء / ٢٩.

(٢) روى الحديث أبو هريرة، وأخرجه أحمد بن حنبل وهو بلفظ: أوتيت جوامع الكلم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٢ ص ٢٥٠.

(٣) صٓ / ٨٦.

كانت الجهالة غالبة عليهم، ولم يتفق له سفر من تلك البلدة إلا مرتين إلى الشام، وكانت مدة تلك المسافرة قليلة، ولم يذهب أحد من العلماء والحكماء إلى تلك البلدة حتى يقال: إنه صلى الله عليه وآله وسلم، تعلم العلم من ذلك الحكيم، وإذا خرج من مثل هذه البلدة ومثل هذه القبيلة إنسان من غير أن يمارس شيئاً من العلوم، ولا تلمذ لأحد من العلماء البتّة ثم بلغ في معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه هذا المبلغ العظيم، الذي عجز جميع الأذكياء من العقلاء عن القرب منه، بل أقرّ الكل بأنه لا يمكن أن يُزاد في تقرير الدلائل على ما ورد في القرآن، ثم ذكر قصص الأولين وتواريخ المتقدمين بحيث لم يتمكن أحد من الأعداء أن يقول: إنه أخطأ في شيء منها، بل بلغ كلامه في البعد عن الريب والشكّ إلى أن قال عند مجادلتهم إياهُ: ﴿ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُم وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكم ثُمَّ نَبْتَهِل فَنجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلى الْكاذِبينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نوحيها إلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ ﴾[2]، ولم يقدر أحدٌ أن يقول إنه طالع كتاباً ولا تلمذ لأستاذ، وكانت هذه الأحوال ظاهرة معلومة للأصدقاء والأعداء على ما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لَارْتابَ المُبْطِلُونَ ﴾[4]، وقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُم عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلون ﴾[5]، وكلٌّ من له عقل سليم وطبع مستقيم علم أن هذه الأحوال لا تتيسّر إلا بالتعليم الإلهيّ والهداية الربّانية.

---

(١) آل عمران / ٦١.

(٢) هود / ٤٩.

(٣) المؤمنون / ٧٠.

(٤) العنكبوت / ٤٨.

(٥) يونس / ١٦.

النوع الثاني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم، كان قبل إظهار دعواه الرسالة والنبوّة، ما كان يشرع في هذه المسائل الإلٰهيّة، وما كان يبحث عنها، وما جرى على لسانه قطُّ حديثُ النبوّة والرسالة. والذي يدل على صحّة قولنا، أنه لو اتفق له شروع في هذه المطالب والمباحث قبل إظهار ادعاء النبوة لقال الكفار له: إنك أفنيت عمرك في التدبّر والتأمّل وتحصيل هذه الكلمات، حتى قدرت الآن على إظهارها، ولمّا لم يذكر هذا الكلام أحد من الأعداء مع شدة حرصهم على الطعن فيه وفي نبوّته، علمنا أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان شارعاً قبل إظهار النبوة في شيء من هذه العلوم، ومعلوم أن من انقضى من عمره أربعون سنة[1] ولم يخض في شيء من هذه المطالب العلمية، ثم إنه خاض فيها دفعة واحدة، وأتى بكلام عجز الأوّلون والآخرون عن معارضته، بل قد انقضى الآن قريب من ستمائة سنة[2] وما جاء أحد يمكنه إقامة المعارضة، فصريح العقل يشهد بأنّ هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل» ـ انتهى كلام الرازي ـ.

وقد رأيت أن أثبت ها هنا زيادة لائقة بهذا المكان، كنت قد علّقتها في هذا المعنى قبل الوقوف على كلام الرازي فلما وقفت على كلامه رأيت إلصاقها به في غاية الملاءمة، وانضمامها إليه في نهاية المناسبة وهي هذه:

اعلم أن العلم بالتفرقة بين المعجز والسحر، لا يتمّ إلا لمن علم

---

(١) ولد النبي الكريم ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول / ٢٠ نيسان من عام ٥٧١ م، وبدأت دعوته ﷺ مع بدء الوحي في يوم الاثنين ١٧ رمضان من عام ٦١٠ م، فكان عمره كما هو واضح أربعين سنة من السنين القمرية، ومكان مولده ﷺ غير بعيد عن الكعبة وقد أقيمت فيه اليوم مكتبة يؤمها الكثير من الحجاج والزوار.

(٢) تاريخ تأليف كتاب الأربعين في أصول الدين من قبل الإمام الرازي.

ماهيّة السحر، وذلك لأن هذا الفرق الذي يُفرق به بينهما ليس إلا وصفاً ثابتاً لأحدهما وغير ثابت للآخر، فإن كان ثابتاً للسحر مُنْتفِياً عن المعجز مثل قولهم: إن السحر يُدرك بالتعلُّم والمعجز لا يدرك به، فلا كَلام أن من لم يعرف السحر لا يمكنه العلم بأنه يدرك بالتعلم، بل يجوز أنه لو تعلمه ما علمه، وأنه إنما يحصل بفعل الله، سلمنا ذلك، لكن إذا رأى المعجز فمن أين أنه ليس من السحر الذي يمكن تعلمه، لا يقال يطلب تعلمه فإن لم يحسن علم أنه معجز، لأنا نقول: هو لا يحسن تعلّمه إلا من ناصح له في التعليم محب لإفادته، وقلّ ما يوجد من السحرة من يعلم السحر أحداً إلا أن يكون ولداً له، أو من منزلته عنده في المحبة منزلة الولد.

وإن كان الوصف الفارق بين المعجز والسحر ثابتاً للمعجز منفياً عن السحر، فذلك أجلى في أن العاقل لا يمكنه أن ينفي وصفاً عن شيء، وهو لا يعرف ذلك الشيء. وقد ذكر الرازي رحمه الله، أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت[1] يعلمان الناس السحر ليفرقوا بينه وبين المعجز، وليعرفوا أنه تعمية لا حقيقة لها حتى ينقضوه، وفي هذا أنهم ما كانوا قبل الملكين متمكنين من معرفته إلا بتعليم السحرة لهم إياه. وإذا ثبت هذا فلا بد من طريق إلى العلم بأن المعجز ليس بسحر، غير هذه مما تعرفه العامة، ولا يختص بمعرفته العلماء بالسحر ولا حذّاق أهل الكلام. نعم وها هنا طريقان: أحدهما: أنه لو كان سحراً

---

(١) هاروت وماروت ملكان، ورد ذكرهما بالقرآن على أنهما ساحران، قال بعض المفسرين: أنهما أهبطا ليحكما بين الناس بالعدل، فأخطآ كما يخطىء البشر فخيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا وكانا يعلمان السحر للناس ويقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ محمد بن جرير الطبري ـ جـ ١ ص ٤٥٢.

لما مكّن الله الساحر من فعله عقيب دعوى النبوة، لا يقال: فقد مكن المقنع[1] من إطلاع قمر يُرى من مسير ثلاثة أشهر أو شهر عند دعوى الربوبية، واستمر حتى قتله المسلمون في قلعة [سَنَام][2] واشتهر حتى قيلت فيه الأشعار فقال فيه المعرّي:

أفِقْ إنّما البدرُ المقنَّعُ رأسُهُ ضلالٌ وَغَيٌّ مثلُ بَدْرِ المُقَنَّع[3]

وكذلك مكن الله الدجال من خرق العادات عند دعوى

---

(١) اسمه عطاء وقيل حكيم، مشعوذ مشهور لا أحد يعرف نسبته إنما عرف بالمقنع الخرساني، ادعى الربوبية بعد مقتل أبي مسلم الخرساني زاعماً أنها انتقلت إليه بالتناسخ منذ أن تحول الله ـ حسب زعمه ـ إلى آدم عبر أبي مسلم. كان دميم الخلقة، مشوه الوجه، أعور، ألكن، قصير، اتخذ وجهاً من ذهب ليحجب خلفه وجهه المشوه. أخمدت فتنته وقتل في عهد الخليفة العباسي المهدي عام ١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م. انظر: تاريخ الطبري جـ ٨ ص ١٤٤، ووفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٢) العبارة ما بين معقوفين ليست في المطبوع، تداركناها من المصادر التي رجعنا إليها. وسنام هذه بفتح السين قلعة حصينة في جبال كش من بلدان ما وراء النهر، وقد أخطأ الزركلي صاحب الأعلام حينما ذكرها بلفظ سبام والصحيح ما أثبتناه من ياقوت وفيها يقول الشاعر:

تذكرني قباب الترك أهلي ومبدأهم إذا نزلوا سناما

ويذكر أن المقنع الخراساني اعتصم بهذه القلعة الحصينة، وحينما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهن السمّ بيده فمتن جميعاً، ثم تناول هو بقية السمّ وبموته دخل جيش المهدي إلى القلعة، وقتل من بها من أتباعه.

انظر: معجم البلدان ـ ياقوت الحموي الرومي البغدادي ـ جـ ٣ ص ١٦٠، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ. وكذلك الأعلام جـ ٤ ص ٢٣٥.

(٣) البيت من البحر الطويل، وهو البيت الخامس عشر من قصيدة للمعري في شروح سقط الزند ص ١٥٠٤. قال التبريزي شارحه: البدر المقنع رأسه امرأة، وقوله: مثل بدر المقنع: كان قد أنبط بئراً واسعة في بعض بلاد خراسان مما وراء النهر، في موضع يقال له: كشّ، فطرح فيها الزئبق الكثير على رأس الماء فكان شعاعه يتبين في الجو كأنه بدر وأقام مدة يغوي كثيراً من الناس بذلك.

الربوبية[1]، لأنّا نقول: الدليل العقلي على بطلان ربوبيتهم قائم وكاف في تكذيبهم، وفي العلم ببطلان ما جاءوا به بخلاف ما لو ادّعوا النبوة قبل أن يأتي السمع بانقطاع النبوة، أما بعد أن جاء السمع بانقطاعها مثل أن يدَّعيَ بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحدٌ النبوّة، فإنه لا يجب على الله أن يمنعه من إظهار السحر، لأن العلم بكذبه وتزويره حاصل من قبل السمع، اللهم إلا أن يقال: إنه لا يقبح من الله تعالى أن يمكن الساحر من السحر عند دعواه النبوة، إلا لو لم نكن نشكّ في أن ما جاء به سحر، فأما والشك في ما جاء به قائم، والريب ثابت: أسحر هو أم معجز؟ فلا يجب في حكمة الله منعه من ذلك، بل الواجب فيها أحد أمرين:

إما أن يجعل لنا سبيلاً إلى العلم بأن ما جاء به معجز لا سحر، فمتى شككنا في ذلك، فليس بمعجز، وإما أن لا يرسل إلا من يعلم أنه لا يحسن السحر، فبهذا السؤال يضعف الاعتماد على هذا الوجه.

الطريق الثاني: وهي المقصودة هنا والمعتمد عليها، هي العلم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يحسن السحر، فيعلم أن ما جاء به ليس بسحر، أما المقدمة الأولى، وهي أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يحسن السحر، فتقريرها أن نقول: لو كان يعرفه لكان إما أن يعرفه

---

(١) حول أفعال الدجال وادعائه الربوبية، ذكر مسلم في كتاب أشراط الساعة (باب ذكر الدجال وصفته) عدداً من الأحاديث الصحيحة عن أصحاب النبي ﷺ، تؤكد هذه المقولة والدجال حسبما هو ثابت عند أهل السنة شخصية مذمومة في الخَلْقِ والخُلُقِ، ابتلى الله به عباده، جعله قادراً على إحياء الميت، يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وكل ذلك يقع بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجز عن ذلك بأمر من الله ولحكمة، ويبطل أمره فيقتله عيسى عليه السلام ويثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت. انظر: صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٤٧ وما بعدها.

بالنظر، أو بالتعلم من علماء السحر، أو بالقراءة لكتبهم ولا رابع، لكن كلها باطل، فبقي أنه ما كان يعرف السحر.

أما أن السحر لا يدرك بالنظر، فالدليل عليه أن السحر راجع إلى معرفة الخواص، مثل العلم بأن المغناطيس يجتذب الحديد، وخواص الأشياء وطبائعها، لا تدرك بالفكر، وإلا لوجب فيمن أطال فكره في الأشياء أن يعرف طبائعها، لكنّا لو تفكرنا عمر الدنيا كله، ما عرفنا خاصة المغناطيس التي لأجلها جذب الحديد. ولا عرفنا أن طبيعة الثوم الحرارة، وأن ما تنفث به الأفاعي سموم قتالة.

نعم، وقد حكى الجويني[1] في مقدمات كتاب البرهان في أصول الفقه[2]، أن هذا قول أكثر القدماء من الفلاسفة، وتردد فيه: هل هو من محارات العقول أو من مواقفها؟.

ويعني بالمحارات: التي يستحيل أن يدركها العقل، ولا يصح من الله تعالى أن يُعَرّف العقول بها.

ويعني بالمواقف ما لا تعرفها العقول الآن لمانع، ويصح أن تعرفها ويمكن أن يُعرّفَ الله العقول تلك الأمور المسماة بالمواقف.

نعم، وقد اعترف الجويني بأن العقول الآن لا تدرك الخاصية تلك وأمثالها وهو المقصود، وأما أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما عرف السحر بالتعلم من السحرة، فلأنه لا يخلو:

---

(١) هو أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني من علماء القرن الخامس الهجري، ولاه نظام الملك المدرسة النظامية، والجويني نسبة إلى بلدة جوين من نواحي نيسابور، وفاته عام ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م. انظر: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٦٧.

(٢) من كتب الفقه وضعه الجويني أثناء إمامته على الحرمين الشريفين. انظر: كشف الظنون جـ ١ ص ٣٤٢.

إما أن يكون قد قرأ عليهم الأزمنة الطويلة حتى تيقن علم الرياضيَّات، والطبائع، والخواص، وهذا القسم باطل، لأنه لو كان، لعلمه قريش واليهود، ولو علموه لقدحوا عليه بذلك، ولو قدحوا لنقل إلينا، لكنه لم ينقل عن أحد من حذاقهم، وأهل الجدل من فطنائهم قدح بذلك على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعلمنا أن المخالطة للسحرة ما كانت منه عليه الصلاة والسلام.

وإما أن يكون قد عَلّمَه السحرَ أحد من السحرة في ساعة أو يوم على وجه لا يجب أن تعلمه قريش، ولا غيرهم من المنكرين للنبوة، فهذا القسم أيضاً باطلٌ، لأنه يستحيل أن يأتي رجلٌ أمّيٌّ لم يألف خفة أهل الحيل[1] والشّعْوَذة، ولا مارس أدوية الخواص والطبائع، ولا أنس بعلماء السحر ورجال الدربة[2] فيه، فيتعلم في مدة قصيرة لا يشعر بها من السحر والخفة، ما يبلغ بهإلى مرتبة في خرق العادات، لا يبلغ أقربَ درجاتها من أهل الذكاء المفرط، من قَضّى جميع عمره وقطع كل دهره،

---

(١) أي: الذين يتعاطون علم الحيل، وعلم الحيل من العلوم التي تمكن صاحبها من خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها والتفطن لها منها على سبيل المثال: ما حكي أنه رُئي بجامع البصرة قرد وعليه ألبسة نفيسة كألبسة أبناء الملوك وهو يبكي وينوح وحوله خدم يتبعونه ويبكون ويقولون: يا أهل العافية، اعتبروا بسيدنا هذا، فإنه كان من أبناء الملوك وعشق امرأة ساحرة وبلغ حاله بسحرها إلى أن مسخ إلى صورة القرد، فطلبت منه مالاً عظيماً لتخلصه من هذه الحالة، والقرد يبكي بأنين وحنين، والعامة يبكون لبكائه ويرقون، فجمعوا له مالاً عظيماً وفرشوا له سجادة فصلى عليها ركعتين، ثم صلى الجمعة مع الناس وذهب به أصحابه مع ما جمعوه من أموال. أقول: ومن يباشر مثل هذه العلوم فإنه يتزيأ بأزياء تتناسب مع ما يعتقده أهل البلدة التي يقيم بها، فهو تارة فقيه وتارة واعظ وتارة متصوف إلى غير ذلك. انظر: أبجد العلوم جـ ٢ ص ٢٥٨.

(٢) يطلق لفظ الدّارِبُ في اللغة على الحاذق بصناعته، والمقصود برجال الدربة هنا الحاذقين من السحرة. لسان العرب مادة/درب.

واشتغل في عامة زمانه في تعلم هذا الفن وتلقن هذا العلم، وكل منصف يعلم أن العربي الصرف، الأمّي المحض، المتربّي بين العرب العرباء[1] أربعين سنة، لا يتعلم في ساعة من السحر ما لا يستطيع الإتيان بقريب منه كرُآسي[2] علماء السحرة وأناسي[3] عيونهم المهرة.

وأما أنه لا يعرف السحر من قبيل قراءة الكتب، فلأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك متواتر، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لَارْتابَ المُبْطِلونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فيكم عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أفَلَا تَعْقِلون ﴾[5].

وقد حكى الله إقرار الكفار بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيه ﴾[6]. فقالوا: اكتتبها، ولم يقولوا: كتبها. وأشاروا إلى أنه لا يقرأ بقولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿ فَهِيَ تُمْلى عَلَيْه ﴾ ولم يقولوا: فهو يُمليها.

وجه آخر: وهو أن القرآن ليس من جنس السحر، وذلك لأن

---

(١) وهم المعروفون بالعرب العاربة الصُّرَحاءُ في أنسابهم وهم غير المستعربين الدخلاء الذين ليسوا بخُلّص.

(٢) الرؤاسي: العظيم الرأس (اللسان)، يريد كبير علماء السحرة، أو لعله قصد بها الرؤساء منهم واحدهم رئيس. واستعمال هذه الصيغة من صيغ الجمع هنا جاءت على غير أوزان الجموع المعروفة.

(٣) جمع إنسان والمقصود هنا إنسان العين وهو المثال الذي يرى في السواد ومنه قول الرجل: استأنست به، أي: أبصرته. لسان العرب/أنس.

(٤) العنكبوت / ٤٨.

(٥) يونس / ١٦.

(٦) الفرقان / ٥.

الإعجاز فيه، إنما هو في حُسن ترتيبه، وإحكام ترصيفه، ومطابقة أفانينه للطيف حالتي القبض والبسط، وموافقة أساليبه لرقيق شأني القطع والربط. فوعيده يبكي العيون، وتُسْتَحلَبُ به الشؤون[1]، وتقشعرّ له الجلود، ويقطع نياط القلوب، بما فيه من ذكر الخلود. ووعده يثير النشاط، ويبعث الانبساط، وأقاصيصه تسلّي المحزون، وتهدي إلى القلوب غرائب العلوم مما كان ومما يكون، فكيف يكون ما هذه صفاته إلا كلام قادر عالم؟ لأنه أمرٌ محكم، وإحكامٌ معجب، والسحر إنما هو أثر طبع أو تعمية، أو خفة أيد. فالطبع لا يؤثر في الأمور المحكمات، وإلّا لجاز إسناد حدوث أحكام الإنسان إلى الطبائع، والشك في ثبوت المحكم الصانع، والتعمية والخفة لا يؤثران في الأشياء الدائمات، وإلا لجوزنا في جميع أشعار العرب العرباء، المتأخرين والقدماء، وجميع رسائل العلماء، وخطب الخطباء، وملح الفصحاء، ونوادر البلغاء، أنها تعمية وخفة أيد، وتزوير، وأثر طبع، أقصى ما في الباب، أن نعلم أن أكثرها ليس من هذا القبيل، فلا تحصل في قصيدة واحدة، ولا رسالة معينة، على يقين أنها ليست بسحر وتعمية، وخفة وشعوذة.

ومن المعلوم أن من شك في ذلك، فقد خرج من زمرة العقلاء، والتحق بأهل التجاهل والسفهاء. ولو كان يجوز أنه من أهل السحر، لجوّزنا أن نسحر حتى إذا سمعنا كلاماً بليغاً، ونظاماً بديعاً، قد وشّيت بعلوم البيان بُردته، وحيْكت من أفانين المعاني لُحمته، وقمعت بظرائف الأمثال أساليبه. وطرّزت بمطابقة الأحوال أفانينه. جوزنا أنه من طمطمة العُجوم[2]،

---

(١) مجاري الدمع من العين.

(٢) الطمطمة، العجمة. والطُمْطُمانيُّ هو الأعجم الذي لا يفصح. وفي صفة قريش: ليس فيهم طمطمانية حِمْيَر، لما في كلامهم من الألفاظ الشبيهة بكلام العجم.

وهمهمة علوج الروم[1]. ومتى سمعنا رطن الأعاجم، وأصوات البهائم. جوّزنا أنها خطب سحبانية[2]، ورسائل بديعيّة[3]، وأشعار جاهلية، ومواعظ علوية، وإذَنْ قدر السحرة على أن يكونوا فصحاء بالسحر فقط.

وجه آخر: وهو أنه لو كان ساحراً لكان مقصده الوصول إلى لذات الدنيا في نفسه وأهله قطعاً. ولو كان ذلك مقصده، لما تحمل مشاق العبادة وصبر على ثقيل الزهادة. واستمر على ذلك من أول أمره إلى آخره يصوم ويقوم، ويؤثر على نفسه، ويكره أن يرى زينة الدنيا مع أهله أو نسائه، ولم تظهر منه قرينة تدل على خلاف ذلك. ثم إنه أوصى أهله وولده بالصبر على ذلك بعد وفاته، وظهر منه أنه عني في بقاء الدين بعد موته، وأنه لا يحب من أعطاه المال إن لم يؤمن به، حتى أن أدنى المؤمنين أرفع لديه درجة من عمه أبي طالب[4]. وذلك يفيد مع سائر القرائن القطع بمفارقته للسحرة. واستقصاء هذه الدلائل في كلام

---

(١) الهمهمة الكلام الخفي، وقيل: ترديد الصوت في الصدر. وفي رواية: أصوات البقر والفيلة وأشباه ذلك وهذا ما يعنيه الإمام لانسجام ذلك مع الصفة التي أطلقها على الروم ـ علوج ـ واحدها علج وهو مصطلح يطلق على حمار الوحش أو العير الوحشي لاستعلاج خلقهما وغلظه.

(٢) نسبة لسحبان وائل، سبق التعريف به.

(٣) نسبة لبديع الزمان الهمداني، أحمد بن الحسين، صاحب المقامات المعروفة، وفاته عام ٣٩٨ هـ.

(٤) من الثابت تاريخياً أن أبا طالب مات ولم يسلم، ولشَدَّ ما حرص النبي ﷺ على إسلامه قبل موته فكان يقول له: «أي عم، فأنت، فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة»، فيقول له: «يا ابن أخي والله لولا مخافة السُّبَّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها...»، من هنا يرى الإمام رحمه الله، أن أقل المؤمنين شأناً هو أقرب للرسول ﷺ من هذا الذي جاء فيه (صٓ، والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عزة وشقاق).

الرازي، وإنما هذا تنبيه فيه مزيد فائدة.

وجه آخر: وهو أن المعجز ما عجز عن الإتيان بمثله السحرة، والمرجوع إليهم في معرفة ذلك الجنس المدّعى معجزاً، بيانه أن الله تعالى يجعل المعجز من الجنس الذي يعرفه أهل ذلك الزمان أو كثير منهم تقوم الحجة بعجزهم على من عداهم، ألا ترى أن أهل زمان موسى لمّا كانوا سحرة، جاء موسى بمعجز مما يشبه السحر، عرفوا أنه ليس بسحر[1].

وأهل وقت عيسى عليه السلام، لما كانوا أطباء، جاء بإحياء الموتى الذي لم يقدر عليه طبيب.

وأهل زمان محمد عليه السلام، لما كانت الفصاحة صناعتهم، وفي بحار البلاغة غياصتهم، وعليها مدارهم، وبها افتخارهم، جاء محمد عليه السلام من الكلام الباهر بما أسكت من تحداه من مساليق خطبائهم[2]، ومفلقي بلغائهم. وإنما فعل الله هذا حتى يُعَلِّم العباد أن المعجزات ليست بسحر، وأن ما أتوا به لا يدافع بعذر، وهذا وجه غير الأول، وهو جيد لمن تأمل.

وجه آخر: وهو ما كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الكرامات في زمن الطفولة، فإنها تخرجه عن زمرة السحرة، مثل ما روى

---

(١) لأن موسى عليه السلام ذكر لهم أنه رسول من رب العالمين، جاء بآية بينة وبرهان، فآمنوا وهم من أعلم الناس في السحر، والآية والبرهان هنا لا يقصد بهما التوراة لأن التوراة أنزلت من بعد ما غرق فرعون في اليم، وإنما هي ما أوحى إليه ربه، أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون. من هنا كان تصديقهم لما علموه من أن هذه الآيات هي آيات من الله فانقلبوا صاغرين، وقالوا: (آمنّا بربّ موسى وهارون).

(٢) المِسلاق من كان نهاية في الخطابة والفصاحة من البلغاء. قال الأعشى:

فيهم الحزم والسماحة والنجـ ـدة فيهمْ والخاطب السِّلّاق

مسلم والنسائي عن أنس: «أن جبريل أتاه وهو يلعب مع الصبيان فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرجه، وجاء الغلمان يَسعون إلى ظئره[١] فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: قد كنت أرى ذلك المخِيطَ في صدره»[٢].

وفي البخاري عن ابن عمر، عن عمر، عن بعض كهان الجاهلية: «سمع جنيّة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقول:

أمَا تَرى الجنَّ وإبلاسَها ويأسَها من بعد إيناسِها
ولحوقها بالقلوص وأحلاسها[٣]

قال عمر: صدق، بَيْنا أنا نائم عند الصنم، فصرخ صارخ يقول:
يا مليح أمرٌ نجيح، رجلٌ فصيح يقول: لا إله إلا الله.
فقمت فما نشبت أن قيل: «هذا نبي»[٤].

---

(١) ظِئْرَهُ: مرضعته.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، والإمام أحمد في مسنده وهو بلفظ: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام ذات يوم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، ثم شق القلب فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَهُ وأعاده في مكانه وجعل الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فجاءوا وهو ممتقع اللون. فقال أنس: فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره. انظر: دلائل النبوة جـ ٢ ص ٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٨٦٦، ولفظ الشعر عنده:

ألم تَرَ الجنّ وإبلاسَها ويأسَها من بعد إنكاسِها
ولحوقها بالقِلاص وأحلاسها

والإبلاس: اليأس ضد الرجاء. والقلاص هنا الصغيرة من الإبل، وهي بمنزلة الجارية الفتاة من النساء. والأحلاس جمع حِلْس، وهو ما يوضع على ظهور الإبل تحت الرحل.

(٤) رواه البخاري: «يا جليح» بدل «يا مليح» ومعناه: الوقح المكافح بالعداوة.

فإن قيل: لا نسلم لكم أنه لم ينقل أن العرب ما ادعت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالط أهل السحر ولا تعلم منهم، بل قد حكى الله عنهم أنهم نقموا ذلك عليه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقولونَ إنّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الّذي يُلْحِدونَ إلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ ﴾[1]. قلنا: ليس في هذا شيء مما ذكرناه، لأنهم لم يستدلوا على ما نسبوا إليه من ذلك بأنه خالط مخالطة معروفة عندهم لرجل معروف، أو رجال معروفين من أهل السحر، ولا نسبوا ذلك إلى زمن معروف ولا إلى بلد.

ولو كان كلامهم مستنداً إلى دلالة تفيد العلم، أو أمارة تثير الظن، لقضت العادة بذكرهم لها والمبالغة في تسييرها حتى تسير سير الأمثال، وتتناقلها ألسنة الركبان، ولو كان ذلك، لنقل إلينا في غير القرآن كما نقلت إلينا في التواريخ سائر أخبارهم وعامة أحوالهم، وإنما افتروا ذلك كذباً عليه واختراصاً، وضجراً منه وامتعاضاً، مثل ما كانوا يرمونه بأنه مجنون وهو الوقور الرصين، وبأنه كذاب واسمه من قبل فيهم الصادق الأمين، من غير حجة على ذلك، ولا أمارة تدل عليه، وإنما قولهم لذلك صريحُ مباهَتة ومحض مكابرة، وبيّن مدافعة وفاضح معاندة، وهذا هو ديدن المحجوج المبهوت، أن يرمي خصمه بصريح الكذب ومحض البَهت، من غير حجة ولا شبهة. وقد روى الحاكم في

= قال ابن حجر في فتح الباري ٧/١٨١: ووقع في معظم الروايات: «يا آل ذريح» وهم بطن مشهور في العرب.

(١) النحل / ١٠٣.

المستدرك حديثاً صحيحاً في هذا المعنى في تفسير سورة المدثر من حديث ابن عباس في قول الوليد بن المغيرة[1]: إن هو إلا سحر يؤثر[2]، أي: يأثُره عن غيره، وقال على شرط البخاري: ألا ترى أنهم لما علموا أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر على غلامَين نصرانيين من عين التمر[3]، اسم أحدهما يسار والآخر خير، وكانا صيقلين[4]، وكانا يقرآن كتباً لهم بلسانهم، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمر بهما ويسمع قراءتهما، رموه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه تعلم أقاصيص القرآن منهما، حين أمكنهم نسبة مخالطته عليه السلام إليهما، فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿لسانُ الّذي يُلحِدونَ إليه أعْجَميٌّ وهذا لِسانٌ عربيٌّ مُبينٌ﴾[5]، لأنهما كانا يقرآن الكتب بلسانهم[6]، ولو قدرنا

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم كنيته أبو عبد شمس من أشهر قضاة العرب في الجاهلية، ومن أكثر زعماء قريش زندقة، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته وهو والد سيف الله الخالد خالد بن الوليد، هلك بعد هجرة النبي ﷺ بثلاثة أشهر ودفن بالحجون.

(٢) بلغت شدة العداوة عند المغيرة في مواجهة النبي ﷺ أنه حينما وجد من إقبال الناس على الدعوة ما وجد جمع قريشاً في ناديهم وقال لهم: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا: كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون ولكن أصلح ما تقولون فيه: ساحر لأنه يفرق بين المرء وأخيه، والزوج وزوجته. فأنزل الله فيه: ﴿سأرهقه صعوداً. إنه فكر وقدر. . . ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾.

(٣) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة كانت من أملاك المناذرة، ومعروف أن المناذرة كانوا على النصرانية قبل مبعث النبي ﷺ. ياقوت جـ ٤ ص ١٧٦.

(٤) أي: أنهما كان يصقلان السيوف ويشحذانها. لسان العرب مادة/صقل.

(٥) النحل / ١٠٣.

(٦) ما يشير إليه الإمام جاء في بعض المصادر على غير هذا الوجه، وخلاصة ذلك أن النبي ﷺ كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى مبْيَعةِ غلام نصراني يقال له: جبر، وهو عبدٌ لبني الحضرمي، فكان المشركون من قريش يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به =

أنه عرف لسانهما، لما قدر أن يصوغه كما جاء مصوغاً في القرآن العظيم، ولو كان متعلماً منهما، لوجب أن يطول اختلاطه بهما وتعلمه منهما كما تقدمت إليه الإشارة.

نعم، فلو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخالطاً لغيرهما ممن مخالطته توهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه تعلم منه، لذكروا ذلك، ولزادوا عليه كما ذكروا ما هو أحقر من ذلك ونسبوا أكاذيبهم إليه. نعم، وقد تمت الزيادة على كلام الرازي والعود أقرب إلى المقصود إلى هنا.

قال الرازي: النوع الثالث، أنه عليه السلام تحمل في أداء الرسالة أنواع المشاق والمتاعب، فلم يتغير عن المنهج الأول البتة، ولم يطمع في مال أحد، ولا في جاهه، بل صبر على تلك المشاق والمتاعب ولم يظهر في عزمه فتور، ولا في اصطباره قصور. ثم إنه لما قهر الأعداء، ووجد العسكر العظيم، والدولة القاهرة القوية، ونفَذ أمره في الأموال والأرواح، لم يتغير عن منهجه الأول في الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، وكل من أنصف علم أن المزوّر لا يكون كذلك، فإن المزور إنما يروج الكذب والباطل على الحق ليجد الدنيا، فإذا وجدها ولم ينتفع بها، كان ساعياً في تضييع الدنيا والآخرة على نفسه، وذلك مما لا يفعله أحد من العقلاء.

النوع الرابع: من معجزاته العقلية، أنه كان مستجاب الدعوة، والذي يدل عليه وجوه:

أحدها: أن قريشاً لما بالغوا في إيذائه حتى دعا عليهم فقال:

= إلا جبرٌ النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله تعالى في ذلك الآية المشار إليها. انظر: السيرة النبوية.

(اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)[1]، فإن الله منع من إنزال المطر عليهم فبطلت زراعتهم، وهلكت مواشيهم، واستولى عليهم القحط، فجاءوا وشفعوا إليه حتى سأل الله إنزال المطر عليهم، فلما سأل ذلك جاءهم المطر، حتى خافوا الغرق، فعادوا وسألوه أن يدعو الله تعالى حتى ينزل المطر بقدر الحاجة فقال: (اللهم حَوالينا ولا علينا، اللهم على الجبال وبطون الأودية)، فاندفع ذلك عنهم.

وثانيها: أنه عليه السلام لما كتب إلى كسرى ملك العجم[2] مزق الملك كتابه، وبعث إليه حَفنة من تراب، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم مزق ملكه)[3]، ثم قال للصحابة: (إنه بعث تراب بلدته إلينا وهذا يدل على أنا نملك بلاده)[4]، ثم كان الأمر كذلك.

ثالثها: أنه عليه السلام، قال في حق عتبة بن أبي لهب[5]:

---

(١) وفي دلائل النبوة والسيرة النبوية عن ابن مسعود قال: لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً قال: «اللهم سبعٍ كسبعِ يوسف»، فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يا محمد، إنك تزعم أنك بعثت رحمة وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم. فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعاً، فشكا الناس كثرة المطر، فقال ﷺ: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانحدرت السحابة عن رأسه فسُقي الناس حولهم. دلائل النبوة جـ٢ ص ٣٢٦.

(٢) وكان في حينه أبرويز بن هرمز بن أنوشروان والد شيروية.

(٣) روى هذا الحديث سعيد بن المسيب وعبد الله بن عباس، وأخرجه البخاري في كتاب المغازي بروايات مختلفة منها أن النبي ﷺ قال حينما بلغه تمزيقه كسرى لكتابه: «أن يمزقوا كل ممزق»، وفي رواية: «مُزق ومزّقت أمته». وفي ثالثة: «مزق الله ملكه»، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ـ محمد بن طولون الدمشقي ـ ص ٦٠ وما بعدها، وكذلك تاريخ الطبري جـ٢ ص ٦٥٥ وما بعدها.

(٤) لم أقف على هذه الزيادة.

(٥) وفي بعض الروايات: لهب بن أبي لهب، وأهل المغازي يقولون: عتبة أو عتيبة.

(اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك)[1] فافترسه الأسد.

ورابعها: أنه عليه السلام دعا لابن عمه عبد الله ابن العباس[2] فقال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[3] فصار ابن عباس ببركة هذا الدعاء رئيس المفسرين.

وخامسها: أن الكفار لما وصلوا إلى الغار فهو عليه السلام قرأ عليهم: (وَجَعَلنا مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ سدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْناهُم فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)[4]، فأولئك الكفار كانوا ينظرون إلى الغار وما كانوا يرونه عليه السلام.

---

(١) قال البيهقي أحمد بن الحسين: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قراءة عليه قال: كانت أم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ في الجاهلية تحت عتيبة بن أبي لهب، وكانت أختها رقية تحت أخيه عتبة، فلما أنزل الله عز وجل: (تَبّتْ يدا أبي لهب)، قال أبو لهب لابنيه: رأسي ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد. فجاء عتيبة إلى النبي ﷺ بعد أن طلق أم كلثوم فقال له: كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبني ولا أحبك، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه». فخرج نفر من قريش في تجارة لهم إلى الشام حتى نزلوا ليلاً بمكان يقال له الزرقاء، فأطاف بهم الأسد فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي! هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني ابن أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام. فعوى عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فضغمه ضغمة فذبحه. انظر: دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٣٨ وما بعدها.

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: صحابيّ جليل ابن عم النبي ﷺ لازمه، وروى عنه أحاديث كلها صحيحة، وصفه البعض ـ حبر الأمة ـ كان آية في الحفظ وفي عهد عمر كان إذا أعضلت عليه قضية يدعوه ويستشيره دون سواه، أقام آخر مدته في الطائف، وجعل أيامه يوماً للفقه، ويوماً للتفسير، ويوماً للمغَازي، ويوماً للشعر، ويوماً لوقائع العرب. وفاته بالطائف سنة ٦٨ هـ/٦٨٧ م. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ ١ ص ٣١٤ وما بعدها، أحمد بن عبد الله الأصبهاني.

(٣) رواه أحمد والطبراني وعند البخاري والترمذي عن ابن عباس، قال: ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال: «اللهم علمه الحكمة»، وفي رواية: «اللهم علمه الكتاب». كشف الخفاء جـ ١ ص ١٩٢.

(٤) يس / ٩.

وسادسها: أنه لما خرج من الغار، ذهب خلفه جمع من الكفار، فلما قرب واحد منهم قال عليه السلام: (يا أرض خذيه)[1]، فغاصت قوائم فرس ذلك الكافر في الأرض ببركة دعائه.

النوع الخامس: من دلائل نبوته ورود البشارة بمقدمه العزيز في التوراة والإنجيل. والدليل على ذلك أنه ادعى أن ذكره موجود في التوراة والإنجيل، وقال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبعونَ الرَّسولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ الَّذي يَجِدونَهُ مَكْتوباً عِنْدَهُم في التَّوراةِ والإِنْجيلِ ﴾[2]، وقال الله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسولٍ يأتي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ يا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[5]. ومعلوم: أنه لو كان كاذباً في ذلك لكان هذا من أعظم المنفّرات لليهود والنصارى عن قوله، ولا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه من مطلوبه، ويبطل عليه مقصوده من غير فائدة أصلاً، ولا نزاع بين العقلاء، أنه كان أعقل الناس وأحذقهم.

النوع السادس: من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم إخباره عن الغيوب، أما إخباره عن المغيبات الماضية، فهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر عن وقائع المتقدمين من غير قراءة كتاب، ولا استفادة من أحد.

فأما إخباره عن الغيوب المستقبلة، فهو على قسمين: منه ما ورد

---

(١) وفي رواية: اللهم اكفناه بما شئت. السيرة النبوية جـ٢ ص ٢٥٢.
(٢) الأعراف / ١٥٧.
(٣) الصف / ٦.
(٤) آل عمران / ٧٠.
(٥) البقرة / ١٤٦.

وقد وقع ذلك. وسادسها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآن لَرادُّكَ إلى مَعَاد ﴾[1] أي: إلى مكة، وقد رده إليها. وسابعها: قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ﴾[2] وقد أظهره. وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[3] والمراد منه الصحابة بدليل قوله: ﴿ مِنْكُمْ ﴾ وبدليل قوله: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾[4] وكانوا هم الخائفين في مبدأ الإسلام. وتاسعها: قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُم ﴾[5]، إلى قوله: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ﴾[6] ثم كان كما أخبر. وعاشرها: قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾[7] وظهور ذلك معلوم في اليهود، فإنه ما رفعت لهم راية قطّ، وما ظهر فيهم سلطان ولا ملك قاهر[8].

قال مولانا رحمه الله: رواة إخباره عليه السلام بالغيوب خ م س[9]

---

(١) القصص / ٨٥.

(٢) التوبة / ٣٣.

(٣) النور / ٥٥.

(٤) النور / ٥٥.

(٥) الجمعة / ٦.

(٦) الجمعة / ٧.

(٧) البقرة / ٦١.

(٨) إلا في هذه الأعصر الظالمة التي وهن فيها المسلمون واسترقّتهم المادة وتحكمت بمصائرهم الفئات الظالمة، فقد نفض اليهود عن كواهلهم أسباب الذل والمسكنة، وأقاموا صرح دولتهم على آلاف الضحايا من العرب المسلمين. فمن لنا بمثل عمر وعثمان وعلي، ومن لنا بمثل خالد وعقبة وصلاح الدين، لا ليقوضوا صرح هذا الكيان المزعوم، إنما ليسترجعوا كرامة العرب وشرف المسلمين.

(٩) هذه الأحرف اختصار لأسماء كتب الحديث ورواته والمقصود بها ما يلي: خ = البخاري، م = مسلم، س = النسائي، ت = الترمذي، د = أبو داود.

عن جابـر بن سمـرة[1] خ م ت عن أبي هـريـرة: (هلك كسـرى فلا كسرى بعده)[2]، و م عن جابـر بن سمرة، و م عن أبي ذر: (ستفتحـون مصر)[3]، خ م د ت س عن جـابر[4]: (ستكـون لكم الأنماط)[5]، وعن أبي هريرة: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[6]، خ م د عن حذيفة[7]: (قام فينا النبي

(١) جابر بن سمرة بن جنادة السوائي صحابي من رواة الحديث، كان حليف بني زهرة. أخرج له البخاري ومسلم وغيرهما ١٤٦ حديثاً، وفاته بالكوفة عام ٧٤ هـ/٦٩٣ م، الإصابة جـ ٢ ص ٤٢.

(٢) جاء هذا الحديث بمعرض إخبار النبي ﷺ عن بعض الحوادث قبل وقوعها وهو بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزهما في سبيل الله عز وجل»، رواه البخاري في الإيمان برقم ٦٦٣٠، ومسلم في الفتن برقم ٧٦ (٢٩١٨)، والترمذي في الفتن ٢٢١٧، وأحمد جـ ٢ ص ٣١٣.

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٥٤٣، وأحمد ٥/١٧٤.

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام الخزرجي الأنصاري صحابي غزا تسع عشرة غزوة، روى عن النبي ﷺ حوالي ١٥٤٠ حديثاً كانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي أدركته الوفاة سنة ٧٨ هـ/٦٩٧ م، الإصابة جـ ٢ ص ٤٥.

(٥) رواه البخاري في الأنبياء ٦/٤٦٢، ومسلم رقم ٢٠٨٣، وأبو داود رقم ٤١٤٥، والترمذي رقم ٢٧٧٥، والنسائي ٦/١٣٦، وأحمد ٣/٢٩٤.. والأنماط: جمع نمط، وهو ظهارة الفراش. ويطلق أيضاً على بساط لطيف له خمل يجعل على ظهر الهودج، وقد يجعل ستراً.

(٦) أخرجه أبو داود برقم ٤٢٩١ في الملاحم، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن وهب، وكذلك أحمد في المسند. انظر كشف الخفاء جـ ١ ص ٢٤٣، وجامع الأصول ١١/٣٢٠.

(٧) هو حذيفة بن حسل بن جابر العبسي أبو عبد الله، معروف بحذيفة بن اليمان كان صاحب سر النبي ﷺ، وذا علم ودراية بأحوال المنافقين، فلما ولي عمر خلافة المسلمين سأله: أفي عمالي أحدٌ من المنافقين؟؟ فقال حذيفة: نعم واحد، دون أن يذكر اسمه، وقد حدث حذيفة أن عمر رضي الله عنه عزله فيما بعد، وكان عمر إذا مات =

صلى الله عليه وآله وسلم، فما ترك شيئاً يكون إلى الساعة إلا حدثه)[1]، وم عن حذيفة مثله، م عن عمرو بن أخطب الأنصاري[2]، م عن جابر، وخ عن أبي هريرة حديث سَمّ الشاة اليهودية[3]، خ م د عن أنس[4]، حديث شاة اليهودية د عن ابن شهاب[5]، حديثها أيضاً، د عن عاصم بن كليب[6] حديث الشاة التي أخذت بغير إذن صاحبها فأهدىَ له لحمها فأمر بإطعامه الأسارى[7]،

= ميت يسأل عن حذيفة فإن حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر، وإلا لم يصل عليه، وحذيفة هذا من ألمع الولاة الفاتحين، وفاته بالمدائن سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م.

(١) أخرجه البخاري في القدر ٤٣٣/١١، ومسلم برقم (٢٣) ٢٨٩١ في الفتن وانظر: أبو داود في الفتن برقم ٤٢٤٠.

(٢) صحابي جليل من بني الحارث بن الخزرج غزا مع النبي ﷺ نزل بالبصرة ويقال إنه بلغ مائة ونيفاً من السنين وهو جد عزرة بن ثابت، روى عنه أنس بن سيرين وغيره من الرواة الثقاة وهو ممن رأى خاتم النبوة. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة. ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٤، وكذلك تقريب التهذيب ـ ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف جـ ٢ ص ٦٥

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم برقم ٣١٦٩ و٥٧٧٧.

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة في الهبة، باب قبول الهدية من المشركين ٢٣٠/٥، ومسلم رقم ٢١٩٠ عن أنس، وأبو داود رقم ٤٥٠٨.

(٥) يريد به الزهري محمد بن مسلم بن عبد الله من بني زهرة من قريش أول من دوّن الحديث، وهو أحد أكابر الحفاظ الفقهاء، تابعي من أهل المدينة، توفي سنة ١٢٤ هـ/٧٤٢ م، ودفن بشغب آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين. انظر: تقريب التهذيب جـ ٢ ص ٢٠٧. والحديث رواه أبو داود في الديات، برقم ٤٥١٠.

(٦) هو عاصم بن كليب الجرمي الكوفي، وثقه ابن معين وغيره، روى عن أبيه وأبي بردة، وعنه أخذ شعبة وعلي بن عاصم، وهو من العبّاد الأولياء لكنه مرجىء. انظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال. محمد أحمد الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي جـ ٢ ص ٣٥٦.

(٧) جاء هذا الحديث بمعرض الدلالة على نبوته ﷺ، فقد حفظه الله تعالى من أكل الحرام حينما قدمت له شاة مطبوخة أخذت بغير إذن مالكها، وتمامه: عن عاصم بن =

خ م س عن عائشة: (أسرعُكُنّ بي لحوقاً أطولكن يَداً)[1]، د عن هلال بن عمرو، عن علي عليه السلام، عنه صلى الله عليه وآله وسلم حديث الحرث المُمَكّن لآل محمد[2]، خ م د عن أبي حميد الساعدي[3]، حديث الريح الشديدة[4]، هذه ثمانية عشر حديثاً.

قال الرازي: وأما الإخبار عن الغيوب المستقبلة في غير القرآن، فكثيرة أحدها قوله عليه السلام: (زويت[5] لي الأرض، فأريت مشارقها

= كليب، عن أبيه، عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فرأيت رسول الله ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر: (أوسع من قبل رجليه أوسع من قبل رأسه)، فلما رجع استقبله داعي امرأة، فجاء وجيء بالطعام فوضع يده ثم وضع القوم فأكلوا، فنظر آباؤنا رسول الله ﷺ يلوك لقمة في فمه، ثم قال: «أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها»، فأرسلت المرأة تقول: يا رسول الله إني أرسلت إلى البقيع - وهو موضع تباع فيه الغنم - لتشتري لي شاة فلم توجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة أن أرسل بها إليّ بثمنها فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت إليّ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أطعميه للأسارى». رواه أبو داود في البيوع رقم ٣٣٣٢ وإسناده صحيح، ورواه البيهقي في دلائل النبوة جـ ٦ ص ٣١٠، وانظر: جامع الأصول ٣٢٩/١١.

(١) رواه البخاري في الزكاة رقم ١٤٢٠، ومسلم رقم ٢٤٥٢، والنسائي ٦٦/٥، ٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٤٢٩٠ في المهدي، قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول ٣٣٠/١١، وإسناده ضعيف.

(٣) هو المنذر بن سعد بن المنذر وقيل: اسمه عبد الرحمن، وقيل: عمرو، صحابي مشهور شهد أحد وما بعدها وعاش إلى خلافة يزيد، وفاته سنة ٦٠ هـ. تقريب التهذيب جـ ٢ ص ٤١٤.

(٤) رواه البخاري في الزكاة، باب فرض التمر رقم ١٤٨١، ومسلم رقم ١٣٩٢ في الفضائل، وأبو داود رقم ٣٠٧٩ في الخراج، وهو حديث طويل، وموطن الاستشهاد فيه قوله ﷺ وهو في غزوة تبوك: «أما إنها ستهب الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد، ومن كان معه بعير فليعقله، فعقلناها. وهبت ريح شديدة، فقام رجل فألقته بجبل طيء».

(٥) أي جُمِعَت وانضمت. النهاية جـ ٢ ص ٣٢٠.

ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها)، رواه م ت د[1] عن ثوبان[2] فكان الأمر كذلك.

وثانيها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعديّ بن حاتم[3]:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن برقم ٢٨٨٩، والترمذي برقم ٢١٧٧، وأبو داود برقم ٤٢٥٢، ورواه أحمد بزيادات لم ترد عند غيره ٥/٢٧٨، ٢٨٤ ونصه عنده: عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل زوى لي الأرض أو قال: إن ربي زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكوا بسنة بعامّة، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، وإن ربي عزّ وجلّ قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يسبي بعضاً. وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وضع في أمتي السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عزّ وجل».

أقول: سقت هذا الحديث على طوله لأدل من خلاله على صدق نبوة النبي ﷺ فقد اكتفى الإمام محمد بن الوزير بدلالة واحدة تؤيد صدق ما نبأ به الرسول الكريم ﷺ ألا وهو انتشار الأمة الإسلامية على طول الأرض وعرضها، ولكن ألا ينطبق عامة ما جاء به الحديث على المسلمين في هذا الوقت، ونحن نرى بأم أعيننا ما يجري بينهم على امتداد الأرض التي يتوزعون عليها؟ فلقد وقر في ذهن كل مسلم وعربي أن السيف الذي شرع يحصد الرقاب كأني به لن يغمد بعد اليوم حتى تشرق الأرض بنور ربها وهذا أكثر برهاناً على نبوته ﷺ.

(٢) ثوبان الهاشمي مولى النبي ﷺ صحبه ولازمه، ونزل بعده بالشام، وفاته بحمص سنة ٥٤ هـ.

(٣) هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي أبو طريف، صحابي شهير كان ممن ثبت على الإسلام في الردة، حضر فتح العراق وحروب علي، وفاته سنة ٦٨ هـ. تقريب التهذيب ص ١٦ جـ ٢.

(لترينَّ الظعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله)، قال عدي: فرأيت ذلك، رواه خ عن عدي[1] .

وثالثها: أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أصحابَه بموت النجاشي وصلّى عليه(*)، ثم شاعَت الأخبار أنه مات في ذلك اليوم.

ورابعها: قوله عليه السلام لعمار بن ياسر[2] : (تقتلك الفئة الباغية)[3] ، فقتل مع علي صلوات الله عليه يوم صفين، وهذا يدل على توحيد الله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وخلافة علي عليه السلام.

وخامسها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: (أشقى الناس عاقر الناقة، والذي يخضب هذه من هذه)[4] ، يعني الذي يضرب رأسك فتخضب لحيتك من دم رأسك، ثم كان كما قال، فضُرب على رأسه حين قتل.

وسادسها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: (ستقاتل الناكثين، وهم أهل الجمل، والقاسطين وهم أهل الشام، والمارقين وهم الخوارج)[5] .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم ٤٥٩٥، وأحمد في مسنده جـ ٤ ص ٢٥٧، ٣٧٨.

(*) الحديث رواه البخاري في الجنائز، باب التكبير على الجنازة أربعاً، رقم ١٣٣٣.

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك العنسي بتسكين النون، كنيته أبو اليقظان، مولى بني مخزوم صحابي من السابقين الأولين، بدري استشهد بصفين سنة ٣٧ هـ.

(٣) مسلم رقم ٢٩١٥ في الفتن.

(٤) رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمر وهو بلفظ: أشقى الناس عاقر ناقة ثمود وابن آدم الذي قتل أخاه. كشف الخفاء جـ ١ ص ١٣١.

(٥) لم أقف على هذا الحديث.

وسابعها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)[1] فكان هذا إخباراً منه ببقائهما بَعده.

وثامنها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (الخلافة بعدي ثلاثون سنة)[2] وكان خلافة الخلفاء الراشدين بعده هذا القدر.

وتاسعها: قصة ليلة الإسراء فإنه أخبر قريشاً عن أمور وكانت كما أخبر، رواها خ م ت عن جابر[3].

وعاشرها: قوله صلى الله عليه وآله وسلم للعباس حين أسره: (افد نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث فإنك ذو مال)، فقال: لا مال عندي، فقال: (أين المال الذي وضعته بمكة عند أم الفضل وليس معكما أحد، فقلتَ: إن أصبت في سفري فللفضل كذا ولعبد الله كذا ولفلان كذا؟)، فقال العباس: والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وإنك لرسول الله. وأسلم هو وعقيل[4].

واعلم أن معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة،

---

(١) رواه أحمد ٥/٣٨٢، ٣٨٥، والترمذي في المناقب برقم ٣٦٦٣، وابن ماجه في المقدمة رقم ٩٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند جـ ٥ ص ٢٢٠.

(٣) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء رقم ٣٨٨٦ و ٤٧٠٩، ومسلم رقم ٢٧٦ (١٧٠) في الإيمان، والترمذي رقم ٣١٣٢، ولفظه عند خ و م: «لما كذبتني قريش قمت في الحِجْر، فجَلاَ الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

(٤) حدث هذا في أعقاب معركة بدر حينما أسر العباس عم النبي مع من أسر من مشركي قريش، كان العباس قد شهد بدراً مع المشركين وهو مكره، واعتبرت مكاشفة النبي ﷺ للعباس من أهم المؤشرات على نبوته ﷺ، فأسلم العباس بعد أن افتدى نفسه وابن أخيه عقيل، ورجع إلى مكة مسلماً وصار يكتب إلى النبي ﷺ بالأخبار. الإصابة جـ ٥ ص ٣٢٨، وانظر البخاري رقم ٤٢١.

ولنكتف ها هنا بهذا القدر، فثبت بما ذكرناه أنه صلى الله عليه وآله وسلم ادعى الرسالة وظهرت المعجزة على وفق دعواه. انتهى كلام ابن الخطيب الفخر الرازي كافأه الله عن إحسانه بالحسنى.

ومما يلائم هذا الكلام ما رواه خ م عن ابن عباس، عن أبي سفيان، عن هرقل، أنه جيء بكتاب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه فقال هرقل: هل ها هنا أحد من أصحاب هذا الرجل؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه وأصحابي خلفي. ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهؤلاء: إني سائل هذا عن الذي يدعي أنه نبي، فإن كذَبني فكذبوه، ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبَه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو حسب، قال: فهل كان في آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل معه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم؟ قلت: يكون الحرب بيننا سجالاً، يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: فهل قال أحد هذا القول قبله؟ قلت: لا، قال: فبم يأمركم؟ قلت: بالصلاة والزكاة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أك أظنه منكم، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[1]، تمّ ذلك مختصراً، هذا لفظ خ وعند م نحوه[2].

واعلم أنك إذا نظرت في هذه الأحوال الشريفة المختصة بالنبي

---

(١) كذا، وفي كتب السيرة ودلائل النبوة: لغسلت قدميه وهو الصواب.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ١/ ٣٠ - ٣٣ وغيره، ومسلم برقم ١٧٧٣، وانظر جامع الأصول ١١/ ٢٧٠ - ٢٧١، ودلائل النبوة جـ ٤ ص ٣٧٧ وما بعدها.

صلى الله عليه وآله وسلم، علمت صدقه بالضرورة، وهي طريقة قوية، ويقوي هذا أن المختار عند المحققين من العلماء ومذهب السيد الإمام المؤيد بالله عليه السلام[1] وهو مذهب الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام[2]، وهو الذي اختاره ابن الحاجب[3] في المنتهى[4]، وهو الذي اختاره الرازي في المحصول[5]، ورواه عن النظام وإمام الحرمين والغزالي[6] قال: والباقون أنكروه، فإذا كان مذهب هؤلاء العلماء الأكابر أن خبر الواحد من عامة الناس إذا انضمت إليه قرائن قوية أفاد العلم

---

(١) يريد به أحمد بن الحسين بن هارون الأقطع من أبناء زيد بن الحسن العلوي الطالبي القرشي من أئمة الزيدية ودعاتها بالديلم، لقب بعد إعلان دعوته سنة ٣٨٠ هـ بالسيد المؤيد بالله، كان غزير العلم في الفقه والكلام، وفاته بآمل عام ٤٢١ هـ.

(٢) من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن مولده بصنعاء عام ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م، ووفاته في حصن هران ـ بنواحي ذمار ـ سنة ٧٤٥ هـ، قيل: إن عدد مصنفاته التي وضعها بمختلف الفنون زادت على عدد أيام عمره، أفردنا له ترجمة مستفيضة في تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، (رسالة ماجستير غير منشورة بتحقيقنا ص ٣١٣ الباب الثاني).

(٣) هو الإمام الشيخ جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المالكي من كبار علماء العربية والفقه، مولده بصعيد مصر عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م ونشأته بالقاهرة ودمشق، ووفاته بالإسكندرية عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م.

(٤) منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل كتاب مشهور ومتداول اختصره مؤلفه بكتابه المعروف بمختصر ابن الحاجب. كشف الظنون جـ ٢ ص ١٨٠٣.

(٥) المحصول في أصول الفقه من أشهر شروحاته الشرح الحافل الذي صنعه محمد بن محمود الأصبهاني، كشف الظنون جـ ٢ ص ١٦١٥.

(٦) من المعروف أن فخر الدين الرازي، رحمه الله، اعتمد في كتابه الذي يشير إليه ابن الوزير هنا على كتابين من أهم كتب الأصول هما: المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين محمد بن علي البصري المعتزلي الشافعي المتوفى عام ٤٦٣ هـ، والمستصفى في (الأصل المستقصى وهو تحريف) للإمام الغزالي. قال الأسنوي في أول شرح المنهاج: (استمد الرازي المحصول من كتابين لا يكاد يخرج عنهما) وذكرهما. انظر: كشف الظنون جـ ٢ ص ١٦١٦ وص ١٧٣٢.

ويقام مقام التواتر فهذا في خبر آحاد الناس، فكيف بخبر أفضل الأولين والآخرين؟ وهذا في القرائن التي مثلوها بأن يخبر إنسان مَلِكاً بأن ولده مات، مع انتهاك حريم وظهور جنازة، ومن أنصف، علم أن القرائن التي ظهرت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أكثر من هذه وأقوى، متجردة عن القرائن الظاهرة على الأنبياء كافة، فكيف إذا قرنت النظر في معجزاته بالنظر في معجزاتهم، وجنَّحْت التأمل لأحواله بحسن التدبر لأحوالهم؟.

ويؤيد ما ذكرناه من أن خبر الواحد إذا انضمت إليه القرائن، يفيد العلم أن خبر التواتر إنما أفاد العلم لكثرة القرائن، وذلك أن خبر كل واحد من أهل التواتر قرينة تولّد الظن، فإذا تضامت القرائن وكثرت، خلق الله عندها العلم عادة، فكذا إذا تكاثرت القرائن في شخص واحد جاز أن يخلق الله العلم عند خبره، ويؤيد ما ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل الأنبياء كافة، ما كانوا يأمرون الصبي إذا بلغ التكليف بالنظر إلى الأدلة، ولا الكافر الذي يأتي مصمّماً على إنكار الله وجميع الشرائع بالنظر قبل تصديق النبي في إثبات الصانع، وأنه حكيم حتى يعلم أن الله متى كان حكيماً قادراً لم يظهر المعجز على الكاذب، وحتى أنه إن صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل إتقان معرفة الصانع، وأنه عالم بجميع المعلومات، قادر على جميع المقدورات، حكيم لا يفعل القبيح؛ فقد بنى تصديقه للنبي على غير أساس، إذ لا يمتنع عنده أن يكون الله أظهر المعجز على يد الكاذب. فإن قيل: إنه يجوز أنهم كانوا قد نظروا وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم ذلك، أو كان ذلك هو الظاهر منهم، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بالظاهر؛ قلنا: الظاهر أنهم كانوا يعرفون الله بمعجز النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قرائن صدقه، وإنما كانوا يُفَرِّعون جميع عقائدهم

على تصديق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمعجز، فهم أو أكثرهم استفادوا معرفة الله من الأنبياء.

والذي يدل على هذا، أن العلم بالله من طريق الاستدلال لا يحصل لأحد إلا بعد الإتقان لأدلة المتكلمين، بل كثير من الناس يفني عمره في درسها، وما يحصل على طائل من تحقيقها، بل الأقل من العلماء هو الذي يستفيد في هذا الفن ويتمكن من رد الشبه ودفع المناظرين، ولو أن العامي المغفل أتى بأدلّة المتكلمين وأجوبتهم عن الفلاسفة وإن غيّر العبارة من غير أن يأخذ عن شيخ ولا يدرس كتاباً لكان ذلك من قبيل المعجز الخارق للعادات.

ومما يوضح صحة الاستدلال على إثبات الربّ سبحانه، وعلى صدق النبوّة بالمعجز قول الله تعالى فيما حكى عن موسى عليه السلام وفرعون، وهو قوله تعالى في الشعراء: (قالَ لَئِنِ اتَّخذتَ إلٰهاً غيري لأجْعلنَّك من المسجونين. قالَ أولو جِئْتُكَ بشيءٍ مبينٍ؟ قال: فأْتِ به إنْ كُنتَ من الصادقين. فَألقى عصاهُ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ. ونزع يدهُ فإذا هي بيضاءُ للناظرين)[1]، فهذا موسى عليه السلام احتج بالمعجز على صحة عقيدته في نبوته، وغيرها على من صرح له نفي الربّ سبحانه. وبهذه الطريقة آمن السواد الأعظم من أهل الإسلام، وعند غلاة المتكلمين لا يصح ذلك، لأنه قبل معرفةالله يجوز أن الله تعالى يظهر المعجز على يد الكاذب، تعالى الله عن ذلك.

ومما يدل على ذلك أيضاً، أن السحرة حين ألقوا عصيّهم ما كانوا قد عرفوا الله تعالى، قال الله تعالى: (فَالْقوا حبالَهُم وَعَصِيَّهُم وقالوا بِعزَّة فرعونَ إنَّا لَنحنُ الغالبون. فألقى موسى عصاهُ فَإذا هي تلقفُ

---

(١) الشعراء / ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣.

ما يَأفِكون. فأُلقِيَ السَّحَرَةُ ساجدينَ. قالوا آمنّا بِرَبِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون)[1].

ويدل على ذلك قوله تعالى: (وإنْ كنتم في ريبٍ ممّا نَزَّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثله)[2] فهذا من الله تعليم لما تشهد العقول بصحته، ولأصحّ الطرق إلى معرفته، ولذلك لم يقدح فيه من سمعه من عقلاء الكفرة، فمن قال: إن هذه الأشياء لم تفده علماً، قيل له ما قال موسى لفرعون: (لقد عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤلاءِ إلاّ رَبُّ السّمواتِ والأرضِ بَصَائِرَ)[3]، فإن قال: هذا تعصب، قلنا: لا بدّ أن يقول المتكلم مثل هذا لمن أنكر دليله، فمن أنكر دليل موسى أولى. فإن قيل: فهل تجوّزون في العقل نبوة، يكون الدليل على صدق مدعيها قرائن أحواله من دون معجز، فإن مذهبكم يستلزم ذلك؟ قلنا: نعم، يجوز ذلك عقلاً لا سمعاً، أما تجويزه عقلاً فالدليل عليه أن العقل إما أن يقضي بأن القصد من النبوة الظن بصدق صاحبها، إذ العمل لا يحتاج إلى أكثر من الظن، فجواز ذلك ظاهر، وإما أن يقضي العقل بأن القصد من النبوة لا يتم إلا بعد العلم بصدق مدّعيها، فالنبوة على هذا تصحّ بشرط أن يكون خبر مدّعيها يفيد العلم، وذلك حيث تنضم قرائن في عدالته وسائر شواهد أحواله، مثل القرائن التي ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا هو الظاهر من تصديق الأنبياء لجبريل عليه السلام، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قد ثبت أنه جاءه وفزع منه، وأمره بالقراءة فامتثل الأمر وصدق، ولم يطالبه بمعجز، ولم يكن قد عرف القرآن فيستدل بإعجازه، وليس في ذلك تجويز له، بل فيه منع منه، لأن

---

(١) الشعراء / ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨.

(٢) البقرة / ٢٣.

(٣) الإسراء / ١٠٢.

دليل السمع يكفي في المنع من ذلك، وإنما قلت: إنه لو لم يَرِد السمع بذلك، لجاز مثل ما يقول الأصحاب، لو لم يرد السمع بتحريم الزنا، لجاز، وليس في ذلك تجويز له، وكذلك قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] وليس فيه أن عمله حابط، لَمّا وقف على شرط. وكذلك هذا الكلام ليس فيه أنه يجوز نبي من غير معجزة، لأني أجزت ذلك لو لم يرد السمع بمنعه، لكن السمع ورد بمنعه، فوجب القول بأنه لا يصح، وقد كان جبريل عليه السلام، يأتيه على صورة دحية الكلبي[2] وغيره، فيعلم أنه جبريل بغير معجز، ولو طالبه معجزاً، لقضت العادة بأن يذكر ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حين ذكر قصة بَدْءِ الوحي فإن ذلك من أعجب ما فيها.

واعلم أن العقل لا يوجب العلم بصدق الأنبياء، بل لو خُلِّينا والقضية العقلية، لكان ظن صدقهم يكفينا في حسن العمل بما جاءوا به من الشرائع. لكن جاء الأنبياء بأنه يجب الجزم على صدقهم، فوجب ذلك سمعاً، وكذلك معرفة الله تعالى لا تجب عقلاً، ولا دليل للمعتزلة[3] على وجوبها عقلاً، لكنها واجبة سمعاً، أما اللطف المقرب

---

(١) الزمر / ٦٥.

(٢) بكسر الدال وتسكين الحاء وتمام اسمه: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي. صحابي شهير كان يضرب به المثل في حسن الصورة، بعثه النبي ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام، شهد اليرموك ثم نزل دمشق، وسكن بالمزة حتى أدركته الوفاة بخلافة معاوية سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م وما يشير إليه الإمام ذكره النسائي والطبراني بأسانيد صحيحة عن أم سلمة وعائشة ويحيى بن معمر، عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهم، بألفاظ مختلفة عن النبي ﷺ أنه قال: «كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي»، الإصابة جـ ٣ ص ١٩١.

(٣) فرقة إسلامية بدأت بواصل بن عطاء الغزّال في القرن الثاني للهجرة، اعتمدت المنطق والقياس أساساً لها لمناقشة المسائل الكلامية، بعد أن اعتزل واصل وزميله

فلا دليل على وجوبه، وهو أشفّ ما تمسكوا به، وأما غيره من أدلتهم على وجوبها عقلاً فظاهر الفساد.

واعلم أيضاً، أن العقل لا يوجب المعجز في النبوة، وإنما وجب ذلك سمعاً. ومعنى وجوبه: أن السمع جاء بأن كل نبيّ لم يصدّقه الله تعالى بالمعجز فهو كاذب، وذلك السمع الذي جاء بذلك، هو الإجماع وإن كان صاحب كتاب الدعائم[1] من الإمامية[2] أجاز ذلك عقلاً وسمعاً واحتج عليه، لكن فيه شذوذ وقد ألزم الجبائي[3] من أجاز قبول خبر الواحد عن النبي، أن يقبل خبر الواحد عن الله تعالى من غير معجزة، والجواب عليه، هو ما قدمنا، من أن خبر الواحد عن الله تعالى متى أفاد الظن، كخبر الواحد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجب العمل به عقلاً، لكن السمع قد أخبر بكذب من أخبر عن الله من غير معجزة،

عمرو بن عبيد مجلس شيخهما الحسن البصري، من مبادىء هذه الجماعة: القول بالمنزلة بين منزلتين، وأن الإنسان خالق أفعاله ونفي أن يكون لله صفات أزلية. انظر: طبق الحلوى، القسم الثاني ص ٣٦ حاشية.

(١) دعائم الإسلام صنفه أبو حنيفة نعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد المغربي المالكي الشيعي، المتوفى بمصر سنة ٣٦٣ هـ. إيضاح المكنون جـ ١ ص ٤٧٣.

(٢) من المعروف أن النعمان بن أبي عبد الله كان في بداية أمره مالكي المذهب، ثم ما لبث أن انتقل إلى مذهب الإمامية وصنف عدة كتب في الفقه الإمامي في مقدمتها كتاب ـ ابتداء الدعوة للعبيديين، وله ردود على أبي حنيفة ومالك والشافعي ينتصر فيها لآل البيت. (وفي سنة ٤١٦ هـ أمر الظاهر لإعزاز دين الله، فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكيين، وأمر الدعاة الوعاظ أن يعظوا من كتاب ـ دعائم الإسلام ـ وجعل لمن حفظه مالاً...)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٤ ص ٢٤٧ وما بعدها ـ كشف الظنون جـ ٢ ص ٧٥٥، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤١٥.

(٣) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي: من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره، إليه تنسب الطائفة الجبائية، له آراء وتفاسير حافلة ومطوّلة. وفاته ومدفنه بقرية جبى من أعمال البصرة سنة ٣٠٣ هـ/٩١٦ م.

وخبر السمع بكذبه، يقتضي القطع بكذبه، ويستحيل أن يحصل ظن بصدقه بعد أن حصل علم بكذبه، إذ القطعي والظني لا يتقابلان.

فإن قلت: فلم جاء السمع، بأن من ادعى النبوة من غير معجزة فهو كاذب؟ قلت: لوجوه:

أحدها: أن نقول لحكمة استأثر الله بعلمها، ولا يجب علينا أن نعينها بعد أن دللنا على كونه حكيماً لا يفعل القبيح ولا العبث.

الوجه الثاني: أن نقول: إن الله تعالى علم أن إظهار المعجزة على مدعي النبوة أولى في الحكمة من عدمه، لا على جهة الوجوب، بل على جهة الأولى، وحينئذٍ وجب أن يفعل الله تعالى ذلك، وجوب استمرار وحكمة، لا وجوب اضطرار، ولا وجوباً يستحق تاركه الذم، بل من حيث أن ترك الراجح مع كونه راجحاً ولا مشقة في فعله على خلاف المعقول.

فإن قيل: فهلا أوجبتم على الله العفو عن الكفار، وغير ذلك من أفعاله التي يقضي العقل برجحان تركها؟.

قلنا: كل ما فعله الله تعالى لم نسلم أن العقل يقتضي رجحان تركه، وكل ما تركه لم نسلم أن العقل يقتضي رجحان فعله، فإن قضى بشيء من ذلك، فلقصوره عن الإحاطة بحِكَم الله التي اقتضت ترجيحه، ولذلك لما علم الخضر ما لم يعلم موسى[1]، رجح ما لم يرجح.

وبالجملة فالاختلاف في مقدار العلوم، يوجب الاختلاف في

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ عبداً من عبادِنا آتيناهُ رحمةً من عندنا وعلّمناهُ من لَدُنّا عِلْماً. قالَ له موسى هل أتَّبِعُكَ على أن تُعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشداً﴾. الكهف/٦٦ و ٦٧.

الأحكام المتفرعة عن تلك العلوم، وعلى هذا، فلو وقع الاتفاق بيننا وبين أحكام الله، ولم يرد في السمع متشابه، كان ذلك من أعظم المتشابه، لأنه يقتضي أن يستوي الخلق وعلام الغيوب، مع كثرة جهالاتهم، ومعارضة شهواتهم وأهوائهم، وكثرة أوهامهم وأغلاطهم، مع الرب الذي يستحيل عليه جميع ذلك!.

الوجه الثالث: ينبني على صحة القول بأن اللطف غير مقرب، وهو لطف التوفيق واجب على الله تعالى، وذلك أن نقول: متى علم الله أنه متى أظهر المعجز، صدّق بعضُ المكلفين الأنبياء، ومتى لم يظهره، لم يُصَدَّق، وجب ذلك مثلما بعث الله تعالى إلى بعض الأمم ثلاثةَ رسل، قال الله تعالى: ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾[1].

فإن قلت: فما تقول في اللطف المقرب؟ هل يجب على الله تعالى؟ قلت: إن كان أولى في الحكمة، وجب وقوعه وجوب استمرار، ولم يجب في نفسه على الله تعالى .لكن المعقول يقتضي وجوب وقوعه، ووقوع كلّ راجح لا مشقة على فاعله في فعله قط، وإن لم يكن راجحاً في الحكمة لم يجب، لأن ما لم يكن واجباً في الحكمة ولا راجحاً لم يقع رأساً، إذن لو وقع من جهته تعالى المرجوح أو المتساوي الذي ليس وجوده أولى من عدمه وذلك لا يجوز عليه سبحانه بالإجماع بين العدلية لأنه خلاف الحكمة.

الوجه الرابع: أن نقول: لعل الله علم أن إظهار المعجز على الأنبياء أولى لئلا يدّعي النبوة الكاذبون، والله تعالى وإن كان قادراً على تكذيبهم بأن لا يخلق علماً بصدقهم، لكن الغلاط[2] يمكن من اتبعهم،

---

(١) يس / ١٤.

(٢) أصحاب المسائل التي يُغالَط بها العلماء ليزلُّوا فيهيج بذلك شرٌّ وفتنة، وأكثر أصحاب =

سيما إذا حصل له ظن قوي، والظن القوي لا يكاد يَفرق بينه وبين العلم إلا الراجحون من أهل العقل، وكل هذه الوجوه متقاربة، إذ محصولها يرجع إلى بيان وجه الحكمة المعلومة، على سبيل الجملة في إظهار المعجز على الرسل. فإن قيل: إذا قلنا إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، معلومٌ صدقُهُ ضرورةً من قرائن أحواله، فهل يترتب شيء من الدين على القول بالتحسين العقلي؟.

قلت: لا يترتب عليه شيء، إلا اعتقاد القطع بأن الله تعالى لا يفعل القبيح، على تقدير أن السمع لم يرد بذلك. أما الآن فنعلم أنه لا يفعل القبيح سمعاً وهو يكفي. وكذا نعلم بالسمع أن الله تعالى، لا يجوز عليه فعل القبيح، لا في ما مضى من الزمان، ولا في ما يأتي.

وكذا نعلم صحة التحسين والتقبيح في حقّه تعالى سمعاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فدلّ على التحسين من وجهين:

أحدهما: أن الملائكة سألوا عن الوجه، ولو كانوا يعتقدون، نفي التحسين ما كان لسُؤالهم عن الوجه معنىً.

والثاني: أن الله تعالى جعل الجواب قاضياً بأن العلة علمه تعالى، لا كون الأشياء ليس فيها قبيح أصلاً، فإذن المستدل على الله تعالى بهذا الدليل، لا يحتاج إلى إثبات التحسين والتقبيح بالعقل، بل يثبتهما بالسمع. وهذه فائدة جليلة، تأمن معها من الداء العضال الذي

= هذه المسائل من أهل المنطق الذين يخوضون بالمسائل الدقيقة والغامضة. من هنا جاء قول ابن مسعود: أنذرتكم صِعابَ المنطق. ومنه الحديث أنه ﷺ نهى عن الغلوطات في المسائل. النهاية جـ ٣ ص ٣٧٨.

(١) البقرة / ٣٠.

أورده الرازي في المحصول، في صدق الله تعالى على قول المعتزلة والأشاعرة[١].

فإن قلت: وما الدليل على أن قرائن الأحوال تفيد العلم بصدق من ظهرت عليه متى كثرت؟.

قلت: الدليل على ذلك: العقل والسمع.

أما السمع: فالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أفلا تَعقِلُونَ﴾[٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أعِظُكُمْ بوَاحِدةٍ أنْ تَقُوموا للهِ مَثْنى وَفُرادى، ثُمَّ تَتَفَكَّروا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلاّ نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديدٍ. قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أجرٍ فَهوَ لَكُمْ إنْ أجْرِيَ إلَّا على اللهِ وَهُوَ على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ﴾[٤]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿أوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمهُ عُلماءُ بني إسرائيلَ﴾[٥] إذ لا فرق بالنظر إلى دليل المعجز، بين

---

(١) معروف أن الأشاعرة فرقة إسلامية تنسب إلى علي بن إسماعيل الأشعري - من أحفاد أبي موسى الأشعري - انشقت عن المعتزلة واختلفت معها حول عدد من المسائل من ضمنها مسألتي الجبر والاختيار، ومع أن للأشعرية آراء حول مسألة الجبر التي نفتها المعتزلة فإنها لم تقل بالجبر الخالص، وإنما اتخذت موقفاً وسطاً بين الجبر والاختيار فرفضت على سبيل المثال أن يكون الإنسان خالقاً لأفعاله على نحو ما ذهبت إليه المعتزلة، لكنها اعترفت بأن للإنسان قدرة على كسب الأفعال. حول هذا الموضوع انظر: الملل والنحل - القسم الأول ص ٩٤ - أبو الفتح محمد الشهرستاني - دار الفكر - بيروت.

(٢) العنكبوت / ٤٨.

(٣) يونس /١٦.

(٤) سبأ / ٤٦ و٤٧.

(٥) الشعراء / ١٩٧.

أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كان يتلو من قبله كتاباً ويخطه بيمينه، أو لا، وبين أن يكون لبث فيهم عمراً من قبله، أوْ لا، إذ فعلُ المعجز يتعذر على من قرأ قبله كتاباً وخطه، وعلى من لم يلبث فيهم عمراً، كما يتعذر على من لم يكن كذلك، فلما فرق الله بين الحالتين حتى أثبت الريبة في أحدهما دون الأخرى، وحتى وبّخهم بقوله: (أفَلا تَعْقِلون)[1] حين لم يصدقوا من لبث فيهم عمراً كثيراً لم يأت بشيء من القرآن، ولا جرى على لسانه ذكر النبوة، ثم جاء بذلك بعد ما مضى أكثر عمره، علمنا أنه تعالى احتج عليهم في هاتين الآيتين بالقرائن التي تفيد العلم، إذ لو لم يحتج بها، لما كان لهما معنى، ولكان إفحام الرسول حين جاء بهما مُمكناً، وذلك لا يجوز.

وفي قوله: (أَفَلَا تَعْقِلونَ) تنبيه على أنه لا ينكر صدق من قضت القرائن الضرورية بصدقه من هو عاقل، وفي قوله: (إذاً لَارْتَابَ المُبْطِلون) دليل على ما تقدم من أنهم إنما علموا أنه ليس بساحر، من حيث إنهم علموا بقرائن أحواله أنه ما كان يعرف السحر، لا أنهم عرفوا ما الفرق بين السحر والمعجز، وذلك لأن الله تعالى بين أنه لو كان يقرأ الكتب ويخطها لارتابوا، ووجه ريبتهم أن يقولوا: هذا علمٌ من الكتب، كنفثات السحر، وخواص الأشياء والأسماء، فلا يمتنع أن هذا سحر. أما إذا كان في البعد عن ذلك مثل أحدهم، وكان السحر لا يدرك بالفكر،

(١) وردت هذه الفقرة في أكثر من سورة من سور القرآن، بل إنها وردت أكثر من مرة في بعض السور من باب حض الإنسان ودفعه على التأمل بعقل سليم، ليسموا بهذه الخصيصة التي خصه الله بها فوق كل اعتبار، فقد تكررت في سورة البقرة مرة في الآية ٤٤، ومرة في الآية ٧٦، وفي سورة الأنبياء مرة في الآية ١٠، ومرة في الآية ٦٧، بينما جاءت مرة واحدة في كل من آل عمران /٦٥، الأنعام/٣٢، الأعراف/١٦٩، يونس/١٦، هود/٥١، يوسف/١٠٩، المؤمنون/٨٠، القصص/٦٠، الصافات/١٣٨.

إذاً لأدركوه مثلما أدركه، ثم جاء بما لا يقدرون عليه، انقطعت مواد الوسواس، وانحسمت علاقات الهواجس، وجزمت العقول على صدقه.

وحين أيسوا من القدح بالشبه القوية، رجعوا إلى التشبيه بالأمور الباطلة، وقد حكى الله ما تمسكوا به وأشار تارة إلى ضعف كلامهم، وتارة إلى عنادهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولونَ إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لسانُ الّذي يُلْحِدونَ إليهِ أعْجَميٌّ وهذا لسانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالوا أَسَاطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُملى عَلَيْهِ ﴾[2]، فقالوا: ﴿ اكتتبها ﴾ لما لم يكن يكتب، وقالوا: ﴿ فهي تُملى عليه ﴾ لما لم يكن يقرأ، ولو كان يكتب ويقرأ لقالوا: كتبها فهو يمليها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أنْ يُؤْمِنُوا إذ جاءَهُمُ الهُدى إلاَّ أنْ قالوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً، قُلْ لو كانَ في الأرْضِ ملائكةٌ يَمْشونَ مُطْمَئنّينَ لَنَزّلنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسولاً ﴾[3]، فأشار إلى أن الرسول ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم، لأنه لو كان جنساً غيرهم وأتى بالمعجز لقالوا: لعل المعجز مقدور لهذا، ولو كان من غيرهم ما عرفوا من قرائن صدقه وتركه لشهواته، وأمثال ذلك ما يعرفون في جنسهم، ولهذا فإنه يبتدىء النبي بدعوى النبوة بين قومه، لشدّة معرفتهم بقرائن صدقه.

وأما السنة، فما روى خ، م، ت عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرَبينَ ﴾[4] صعِد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش[5]، حتى

---

(١) النحل / ١٠٣.

(٢) الفرقان / ٥.

(٣) الإسراء / ٩٤ و ٩٥.

(٤) الشعراء / ٢١٤.

(٥) معروف أن قريش اسم القبيلة العربية التي كانت تقيم بمكة قبل بعثة النبي ﷺ وهي =

اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش[1]، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟)، قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[2].

وروى خ م في الصحيحين عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن مَثَلي وَمَثَلَ ما بعثني الله، كَمثلِ رجلٍ أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيشَ بعينيَّ، وإني أنا النّذيرُ العُريانُ[3]، فأطاعهُ طائفةٌ من قومه، فأدْلجو[4] فانطلقوا على مهلهم، وكذّبتْ طائفةٌ منهم فأصبحوا مكانهم فَصَبَّحهُمُ ذلك الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فكذلك مَثَلُ من أطاعني واتّبع ما جئتُ به ومَثَلُ من عصاني وكذّب ما جئتُ به من الحقّ)[5]، فانظر كيف شبه النبي صلى الله عليه وآله

= منسوبة لمؤسسها الأول النضر بن كنانة على إجماع أكثر الروايات، إنما سمي قريشاً من التقرّش والتقرش، التجارة والاكتساب، ومنه جاء القول: عير قريش، للدلالة على هذا المعنى. ومن قريش هذا تفرعت قبائل وبطون مكة، ومن هذه البطون بنو فهر المشار إليهم ها هنا وينسبون لفهر بن مالك بن النضر ومنازلهم حول مكة، وكذلك بنو عدي المنسوبون إلى عدي بن كعب بن لؤي بن غالب الذي ينتسب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض).

(١) يقصد أكثر رجالاتها.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة الشعراء باب «وأنذر عشيرتك الأقربين»، رقم ٤٧٧٠، ومسلم رقم ٢٠٨، والترمذي رقم ٣٣٦٠.

(٣) قال العلماء: العُرْيان رقيب القوم وطليعتهم، وأصل ذلك أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة، نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بما دهمهم: النهاية جـ ٣ ص ٢٢٥.

(٤) أي: ساروا من أول الليل.

(٥) رواه البخاري في الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي رقم ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل رقم ٢٢٨٣، باب شفقته ﷺ على أمته.

وسلم صدقَه بصدق من يُعلم صدقه بالقرائن الضرورية، في حال لا أحوج منها إلى إيراد الدليل الواضح، وفي ضرب المثل لا تشبّه فيه الأشياء إلا بما يماثلها مماثلة ظاهرة.

وأما الآثار، فمثل حديث ابن عباس الثابت في الصحيح في شأن هِرقل وأبي سفيان كما مضى، ومثل كلام جعفر بن أبي طالب عليه السلام، الذي أجابَ به النجاشي فإن فيه: فبعث الله إلينا رسولاً منا نعرف صدقه وأمانته فآمنا به، أو كما قال[1]، فاكتفى بذكر معرفتهم لصدقه وأمانته، وكلامه عليه السلام معروف في مواضعه.

وأما العقل، فهو أنا نعلم صدق من ظهرت عليه القرائن ضرورة، مثل خبر الرجل الثقة بموت ولده متى علمنا بمرضه، ثم سمعنا بالصراخ العظيم، وانتهاك الحريم، وظهور الجنازة، واجتماع المعزين وغير ذلك. وهذه القرائن، أقلّ من القرائن الشاهدة بصدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومتى علمنا صدقه ضرورة، لم يجب نصب دليل على ذلك، لأن الاستدلال لو وجب على الضروريّات، لما صحّ علم أبداً، لأن الاستدلال إن لم ينته، فما لا نهاية له محال، وإن انتهى، فلا نهاية له إلاّ إلى الضرورة.

واعلم، أنا رأينا الأمور العادية مختلفة، منها ضرورية تحصل لكل عاقل، وإن لم ينظر ويتفكر، مثلما أنك إذا لقيت صاحبك، علمت بالعادة أنه هو ذلك، ومن الجائز أن الله خلق مثله، لكنك لا تُجوِّز أنه شُبِّه لك، مثل ما شُبِّه عيسى عليه السلام للنصارى الذين زعموا أنهم قتلوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُم ﴾[2] فمن شك

---

(١) انظر السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٩٠.

(٢) النساء / ١٥٧.

في أن صاحبه هل هو هو؟، أو، هو مثله؟ خرج عن دائرة العقلاء.

فإن قلت: فكيف يقطع بأنه صاحبه، ويُجوّز أن الله خلق مثل صاحبه؟

قلت: تحقيق هذا أن تجويزه راجعٌ إلى العلم بأن الله قادرٌ على أن يخلق مثل صاحبه وشبهه عليه، كما شبه عيسى على قاتليه، وأن لا يخلق وعلمه العادي راجع إلى أنه علم أن الجائز في مقدور الله وقوعه لم يقع، فإنه علم بأنّ جائزَ الوقوع ما وقع، فلا تناقض بينه وبين تجويز الوقوع، بالنظر إلى القدرة، وهذا كالعلم بأن المرجوح لا يقع قطعاً من الله تعالى ولا من غيره مع تجويز وقوعه بالنظر إلى القدرة. فهذا قسم مْن العاديات[1] ضروري، وأمثاله كثيرة.

والقسم الثاني منها لا يحصل إلا عقيب العلم بالقرائن الموجبة لها، كأنها لمّا لم تكن معلومة للجميع، احتاجت إلى النظر، فمن عرفها، أو عرف كثيراً منها عقيب ذلك النظر، صدق ما دلت عليه علماً ضرورياً، لا يمكنه الشك فيه، على اختلافٍ بين الناس في تسمية العلم الحاصل عقيب النظر ضرورياً، وفي الحقيقة الخلاف لفظي، فإن قيل: إن الغادة غير مستمرة بحصول العلم بصدق القرائن، كما هي مستمرة بحصول العلم عقيب المجرِّبات، كاحتراق القطن بالنار، قلنا: إن أردتم أنها لم تستمر في حق كل قرينة، أو قرائن، فمسلمٌ، وإن أردتم أنها لم تستمر عند ظهور القرائن الكثيرة التي مثل قرائن صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فغير مسلّم.

فإن قيل: إن المثال المتفق عليه في إحراق النَّار للقطن، مستند إلى المشاهدة، فلا تقاس عليه القرائن الشاهدة بصدق النبي صلى الله

---

(١) العاديات التجاوزات يقال: عدِّ عن هذا الأمر، أيْ تجاوزه إلى غيره.

عليه وآله وسلم، لأنا نقول: لم نردّ القياس حتى يبطل بوجود الفارق، وإنما أردنا بالمثال أن نري الخصم، أنه يقول بحصول العلم مع التجويز الراجع إلى القدرة لا إلى المعلوم. فإن قيل: إثبات العلم الضروري الحاصل عن القرائن لا يصح في ما لم يسند إلى المشاهدة بالإجماع، وإنما وقع الخلاف في ما يستند إلى المشاهدة، قلنا: لا نسلم بالإجماع، فدلوا عليه، وأثبتوا لنا إجماعاً قطعياً متواتراً، عن كلّ عالم كلامي وغيره نصاً، فإن الإجماع الظّني في هذه المسائل، غير مفيد، ومنتهى ما في الباب، أنا نسلم أن هذا العلم الحاصل من القرائن لا يسمى عادياً، فما الدليل على انحصار أقسام العلوم الضرورية في الأقسام التي سماها المنطقيون؟ وما المانع من إثبات علم ضروري ليس من أحد تلك الأقسام؟ وإجماع الناصّين على حصر أقسام الضروريات ليس بحجة ولا شبهة والحمد لله.

والقسم الثالث: من العاديات غير مفيد للعلم، مثلما أنا نجوّز أن تطلع الشمس غداً من المغرب، مع أن العادة طلوعها من المشرق، وذلك لأن العلم الضروري صُنْعُ اللهِ، فلو كانت العادة هي المؤثرة فيه، لوجب وجوده عند وجودها مستمرة، لكن العلة فيه، خلق الله تعالى له، فإن قيل: فيلزم إما أنَّ قَتَلَةَ عيسى كانوا يعلمون أنه عيسى، مع أنه ليس بعيسى، هذا خلف، وإما أنهم كانوا يشكون فيه، فقد خرجوا عن زمرة العقلاء.

والجواب: أنا نلتزم أنهم شكّوا وقال الله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهم إنَّا قَتَلْنا المَسيحَ ﴾[1] - إلى قوله -: ﴿ وَإنَّ الّذينَ اخْتَلَفوا فيهِ لفي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بهِ مِنْ علمٍ إلاَّ اتباعَ الظَّنِّ وما قَتَلُوهُ يَقيناً ﴾[2].

---

(١) النساء / ١٥٧.

(٢) النساء / ١٥٧.

قوله: يلزم خروجهم عن زمرة العقلاء، قلنا: لا يلزم، لأن الله لم ينزع من قلوبهم العلوم الضرورية، لكن لم يخلق لهم اعتقاد جهل أن ذلك عيسى، وإنما كانوا يخرجون عن العقلاء لو رأوا عيسى بنفسه، ثم شكّوا في كونه عيسى من غير موجب للشك.

فإن قيل: فهل يجوز أن ينزع الله العلم الضروري من قلب العبد ثم يبقى مكلفاً؟ قلت: أما بدليل العقل، فيجوز وأما بالسمع، فلا أدري.

فإن قلت: فهل يجوز مطلقاً أم لا؟.

قلت: لا، بل يفصل، فنقول: من العلوم ما لا يتم التكليف إلا به، مثل علم التحسين والتقبيح، سوى استدلالنا عليه عقلاً أو سمعاً، ومثل العلم بالعلوم التي لا يثبت صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا الإقرار بالصانع تعالى إلّا بها، ومنها ما لا يتعلق بالتكليف رأساً، مثل أن يخبر رجلٍ بموت كافر لا تجب الصلاة عليه، مع قرائن توجب العلم بصدقه عادة، لم لا يخلق الله العلم بصدقه، فلا يرتفع عنه شيء من التكاليف لعدم هذا الضروري في العادة، وإن تعلق به تكليف، وبقي مع عدمه تكليف، سقط ما تعلق به.

فإن قيل: ما الفرق في العاديات بين الظن الغالب والعلم؟ قلنا: أن يميل المعتقد للشيء إلى جهة التشكيك، ويصغي إليها غاية الإصغاء بعد النظر التام، فإن شك، فهو الظن، وإلا فهو علم، وهذا هو الميزان الذي يميَّز به بين الظن والعلوم في جميع الظنون والعلوم فاعتبره.

فإن قيل: فلماذا حث الله على التفكر في خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات؟ وهلّا اقتصر الحثُّ على النظر في معجزات الأنبياء وأحوالهم؟.

قلنا: لسنا ننكر أن ذلك طريق واضح، لكنا نقول: إن هذا أيضاً طريق آخر، والطرق إلى معرفة الله كثيرة. ولله من قال:

وفي كــلِّ شيء لـه آيــةٌ تـدلُّ على أنَّهُ واحِــدُ[1]

ولا ندَّعي أن جميع المكلفين ما عرفوا الله إلا من طريق تصديق الأنبياء، بل ندعي أن كثيراً من المكلفين، ما عرفوا الله إلا من طريق تصديق الأنبياء، وإن ذلك تواتر إلينا تواتراً معنوياً عن كثير من الناس، وتواتر إلينا أيضاً تواتراً معنوياً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قررهم على تصديقهم له، فلو لم يكن صدقه معلوماً ضرورة من قرائن أحواله، لكان قد أقرهم على التصديق مع الشك في الصانع، وذلك إقرار على الكفر، ولا يجوز عليه مثل ذلك، ومن أراد معرفة ذلك فعليه بمطالعة السيرة النبوية، وتواريخ الصحابة، ومعرفة أحوالهم، فإن الدلالة على مثل ذلك بالبرهان لا تصحّ.

نعم، فإن قيل: هلاّ قلتم: إنهم قد عرفوا الله تعالى وصفاته بالأدلة الجملية دون التفصيلية؟.

قلنا: هذه التفرقة بين المعارف غير صحيحة، على ما يدل عليه، وهو اختيار فخر الدين الرازي، ونحن نكتفي في ذلك بإيراد كلام الرازي فنقول: قال في المحصول:

واعلم أن هذا الفرق إنما يتلخص إذا سلمنا لهم الفرق بين

---

(١) البيت من المتقارب لأبي العتاهية من مقطوعة في ديوانه ص ١٠٤، بتحقيق د. شكري فيصل وقبله:

فيــا عجباً كيف يعصي الإلـ ـه أم كيف يجحـده الجـاحـد
ولِـلّهِ فـي كـل تـحـريكـةٍ علينـا وتسكينـة شـاهـد

صاحب الجملة وصاحب التفصيل، وعندي أن هذا الفرق باطل[1]، وذلك أن الدليل إذا كان مركباً من عشر مقدمات، فالمستَدِل إن كان عالماً بها بأسرها، وجب حصول العلم النظري له لا محالة، وامتنعت الزيادة عليه، لأن تلك المقدمات العشر، إذا كانت مستقلة بالإنتاج، فلو انضمت مقدمة أخرى إليها، استحال أن يكون لها أثر البتة، وأما إن لم يحصل العلم بها بأسرها، مثل أن يحصل العلم بتسع منها ولم تكن المقدمة العاشرة معلومة بالضرورة ولا بالدليل، وكانت مقبولة على سبيل التقليد، فتكون النتيجة المتولدة عن جميع تلك العشر المقدمات، تقليداً، لا يقيناً، فثبت أن التمسك بالدليل لا يقبل الزيادة والنقصان البتة.

مثاله: إنهم يقولون: إن صاحب الجملة يكفيه الاستدلال بحدوث الحوادث في العالم، من الرعد، والبرق، والحرّ، والبرد، على وجود الصانع، فنقول: هذا لا يكفي، لأنا نقول: هذه الحوادث لا بد لها من مؤثّر، وذلك المؤثر يجب أن يكون مختاراً.

أما المقدمة الأولى فمعلومة للعوام، وأما الثانية فغير معلومة لهم لأنهم ما لم يثبت أن ذلك ليس أثراً لمؤثر موجب، لم يجب إسناده إلى المختار، فإذا قطع العامي بأن ذلك يجب إسناده إلى المختار من غير دليل، كان مقلداً، وكذا إذا رأى حدوث فعل خارق للعادة على يد نبي، فقطع بنبؤته قبل الاستدلال على أن ذلك ليس خاصية لنفس ذلك النبي،

---

(١) هنا يتفق شيخ الإسلام ابن تيمية في إبطال ما يذهب إليه الرازي، وإن كان لابن تيمية وجهة نظر أخرى في كل ما قاله الرازي للدلالة على إثبات ذات الله سبحانه وتعالى بيد أن الرازي ما لبث أن عاد عن رأيه في آخر مصنفاته حينما قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. النبوات ص ٥٢.

ولا فعلاً لغير الله، ولا خاصيّة لدواء، كان ذلك تقليداً، فظهر أنه لا علم إلا تفصيلي. فإن قيل: فما المخلص على قولكم من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كان يقرر على التقليد؟ قلنا: إنهم كانوا يظهرون له عند تصديقه، أنهم قاطعون بصدقه، ولم يكونوا يظهرون أنهم شاكّون في صدقه، فكان يجريهم على الظاهر في أنهم عالمون بصدقه، ولكن كثيراً منهم ربما أظهر أنه إنما صدق بالله قبولاً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قلنا: إن تصديقه بالله عز وجل من غير دليل سوى العلم بصدق النبي، كاف لمن حصل له. فإن قيل: من أين علمتم أن الأنبياء كثرة لا يجوز عليهم التواطؤ على الكذب، وأن قرائن أحوالهم القاضية بصدقهم ثابتة، وأن ما ذكرتم من المعجزات التي ظهرت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ثابتة؟ قلنا: علمنا ذلك كله بالتواتر المعنوي، كوقائع علي في الشجاعة، وحاتم في السخاء[1]، وإن كان كل خبر بالنظر إليه بعينه مظنون، لكن الجملة معلومة.

فإن قيل: فالكثرة لا تدل إلا على أنهم لا يتعمدون الكذب، أما إنهم لا يخطئون غلطاً وتوهماً فلا، فإن طائفة الفلاسفة على كثرتهم، قد غلطوا، ونحن نجد من أنفسنا أن جميع أهل العلم لو أخبرونا بأن لنا خالقاً، ما وجدنا علماً ضرورياً بصدقهم! قلنا: ليس العلة في العلم بصدقهم هو مجرد كثرتهم، لكن أمورٌ أحدها: كثرتهم، وثانيها: جميع ما ظهر عليهم من القرائن التي لا توجد في علماء الإسلام ولا علماء الفلاسفة ولا غيرهم وقد تقدم تعدادها، وثالثها: أن فيما جاءوا به، ما يستحيل أن يعلموه بالدلالة والنظر، كالصلوات، وسائر أنواع العبادات، ومقادير الثواب على الطاعات والعقاب على المحرمات. فإن

---

(١) يقصد حاتم الطائي.

قلت: يجوز أنهم علموا ذلك بالطريق النظرية التي علمه بها المتكلمون! قلت: إن الأنبياء عليهم السلام، جاؤوا من تفاصيل ذلك بما لم يأت به أحد من علماء النظر[1] ولا ادعاه، مثل معرفة كمية الحسنات الحاصلة على التسبيحة الواحدة ونحوها، وإنما نهاية المتكلم أن يعلم أن فاعل الفعل الحسن يستحق عليه الثواب.

الوجه الرابع: أنهم كانوا مهملين للأنظار الكلامية، مجانبين لطرائق المتكلمين المنطقية، لم يدرسوا على أحد من أهل صناعة الاستدلال كتاباً، ولا سمعوا من واحدٍ منهم كلاماً، يجلس الواحد منهم أربعين سنة لا يخوض في شيء من الإلٰهيات، ولا يكتسب مطالب[2] النظريات ثم يخوض دفعة واحدة في الأحكام الأزلية، والنعوت الخفية، والأمور التي احتجبت عن أذكياء البرية، بحيث لو اجتمع عليه جميع الفلاسفة، وشُعلُ الذكاء[3] المتقدة من المتقدمين والمتأخرين، والفلاسفة والمسلمين، يوردون عليه الشُّبَهُ التي تتحير فيها أفهام الفطناء، وتَدحَضُ في مزالقها أقدام الأذكياء، ما أصغى إلى كلامهم ولا مال إلى مقالتهم، ولا قدحت قويات شُبَهِهِمْ نار الشك في قلبه، ولا تردد في الجزم على اعتقاده.

وهذا ليس بطريقة النظّار، فإن المعلوم من أرباب النظر، أنهم يجدون الشكوك عند ورود الشّبَه، حتى أن بعض علماء الكلام ارتدوا إلى الكفر بعد الإسلام[4].

(١) أي أصحاب النظريات العامة وهم في جملتهم من العلماء والمفكرين، وفي حديث الزهري: (لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ)، أي: لا تجعل لهما شبهاً فتدعهما وتأخذ به.

(٢) في المطبوع: المطالب.

(٣) شُعَلُ: من الفعل شعل، قالت العرب: شَعَلَ في الشيء إذا أمعن فيه، وشُعَّل هنا من صيغ الجمع يراد بها أولئك المتميزين عن غيرهم توقداً لفرط ذكائهم.

(٤) ليس أدل على ذلك من أحمد بن يحيى بن إسحاق الشهير بالراوندي من أهل بغداد =

الوجه الخامس: أنه لم ينقل أن نبيين اختلفا في شيء قط، ولا كذّب أحدهما الآخر، ولا غلّطه ولا خطّأه، والمعلوم أنهم لو كانوا اكتسبوا ذلك بالنظر، لقضت العادة باختلافهم كلما اشتد الاختلاف بين الفلاسفة وبين المسلمين، فإن كثيراً من العلماء قد تفردوا بمقالات لم يشاركهم فيها غيرهم، واستبدوا باختيارات لم يسبق إليها سواهم، حتى قيل: اجتماع العلماء في النظريات محال، كاجتماعهم على إنكار الضروريات، ولذلك وُضِع قانون الجدال.

وبعـد: فإن النظار اختلفوا في كثير من البديهيات، كالتواتر، والتحسين، والتقبيح، وأفعال العباد. ادعى أبو الحسين الضرورة في تأثيرهم فيها والأكوان أنكرها، وسمعت أنه ادعى الضرورة في نفيها، وأمثال ذلك كثير.

الوجه السادس: أنهم لو اشتغلوا بالنظر لنقل إلينا نظرهم، وكيفية استدلالهم، وإذاً للقنوا أتباعهم والمصدقين بهم الأدلة التي هي أصول الإسلام، والتي لولاها لما عرفوا الله تعالى، لكنّهم حرصوا على تعلمهم الشرائع والآداب حتى كيفية قضاء الحاجة، وأهملوا تعليمهم الدلائل وتعليمهم كيفية حل الشبه، ولا شك عند جميع أهل الدّربة في النظر أن علم المنطق[1] وأمثاله، من أوجب الواجبات، وأعظم فروض الكفايات على من يدعي أن الدِّين متلقى بالنظر في المقدمات والاستنتاج منها، ومن ثم رآه المتأخرون كذلك واشتغلوا به عن فروع شرائع الأنبياء وعن الاقتداء بالأنبياء في التعبّد، وعن طلب المعاش، فإن الاشتغال بتحقيق

= كان بادىء أمره من متكلمي المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالإلحاد عاش ٣٦ سنة مع ما انتهى إليه من المخازي، ومات برحبة مالك بن طوق الواقعة على الفرات ما بين الرقة وبغداد عام ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م. وإليه نسبة الفرقة الراوندية.

(١) ويسمى أيضاً علم الميزان، وهو علم يعرف من خلاله كيفية اكتساب المجهولات =

علم الكلام[1] دقيقهُ وجليلهُ، وجميع أنواعه مما انقطع الأذكياء في تحصيله، واعترفوا بالقصور عن بلوغ غايته ومنتهاه.

هذا الإمام الرازي سلطان العلماء، وحجة الحكماء، وفخرالملة، وشُعْلة الذكاء، وفيلسوف الإسلام بعد أن انتهج الطرق الفلسفية، وسلك المسالك الخفية ينشد في كتاب النهاية:

العلمُ للرحمنِ جلَّ جلالـه وسواه في جهلاته يتَغَمْغَمُ[2]

أين التّراب منَ العلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وينشد فيه أيضاً:

نهاياتُ إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضَلالُ[3]

ويقول في وصيته التي مات عليها: ولقد اجتربت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال

= التصورية والتصديقية، وموضعة المعقولات، أما الغرض منه فعصمة الذهن عن الخطأ في التفكير. أبجد العلوم جـ٢ ص ٥٢١.

(١) عرف أهل المنطق هذا العلم بقولهم: إنه علم يمكن الإنسان من إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها، وموضعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته، أو: الموجود من حيث هو موجود، وللإمام محمد بن الوزير كتاب يعرف باسم: ترجيح أساليب القرآن لأهل الإيمان على أساليب اليونان، رد فيه على أهل هذا العلم وأثبت أن جميع مسائل العلم تثبت بالقرآن والسنة ولا يحتاج معهما إلى قوانين المتكلمين وقواعدهم، وهو ينسجم مع ما ذهب إليه الغزالي حيث يقول: «وحاصل ما يشمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنها، فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع... الخ»، المصدر السابق ص ٤٤١.

(٢) البيتان من الكامل.

(٣) البيت من الطويل.

بالكلية لله تعالى، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذلك إلاّ للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضائق العميقة، والمناهج الخفيّة، وقد قال بعضهم:

وكم في البـرية من عـالم قويّ الجدالِ دقيقِ الكلم[1]
سعى في العلوم فلمّـا يفـد سـوى علمه أنـه ما علم

فبهذه الأمور علمنا أن الأنبياء ما أخذوا عقائدهم عن النظر، ولا كانوا بحيث يجوز عليهم التواطؤ على الكذب، فلم يبق إلا أنهم علموا ما دانوا به علماً ضرورياً، ولا يقال: إنه صلى الله عليه وآله وسلم، إنما ترك ذلك لأنه لم يكن في زمانه مشبّهة، لأن اليهود كانوا محاورين له، وكانوا أهل فلسفة، ولأن النصارى وابن الزِّبَعْرى[2] ناظروه فلم يأت بشيء من جنس علم الكلام، وكذلك لما سئل عن الروح، ولا يقال إنه أراد به جنساً من الملائكة، لأن السابق إلى الأفهام خلافه، فهو تأويل بغير دليل، كما لا يقال: إن الروح جبريل لمثل ذلك، ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم، قد أمر أحدنا أن يقول عند أن يكثر سؤال الناس: (آمَنْتُ بالله ورُسُله) ثبت ذلك في الصحيح عن أبي هريرة[3]، وخبر الواحد يكفي فيما يعامل به المشبهون والمكثرون للسؤال، لأن معاملتهم

(١) البيتان من المتقارب.

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي، كنيته أبو سعد شاعر قريش في الجاهلية من المتكلمين، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، ثم ما لبث أن عاد إلى مكة مسلماً تائباً. له أشعار مدح بها النبي ﷺ، وفاته نحو عام ١٥ هـ/٦٣٦ م. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ ٥ ص ١٣٨ ـ محمد أحمد الحسني الفاسي المكي، تحقيق فؤاد سيد ـ القاهرة ١٩٦٦.

(٣) جاء هذا الحديث في مسند أحمد بمعرض سؤال وفد بني حنيفة حينما قال ﷺ لاثنين منه: أتشهدان أني رسول الله؟ فقال: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال النبي ﷺ: آمنت بالله ورسله، ولو كنت قائلاً لقتلتكما. مسند أحمد حـ ١ ص ٤٠٤.

ليست من مسائل الاعتقاد وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[1]، وهذا معنى حديث أبي هريرة، فصح بحمد الله ووجب العمل به.

الوجه الثاني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم، لم يضع كما وضع المتكلمون فيما الحالة فيه واحدة في معرفة الأدلة ووجوه دلالتها. ألا ترى أنه سُئل عن الرؤية فلم يجب بدليل عقلي بالإجماع، واكتفى بالسمعي. وأجلى من هذا، أنَّ قريشاً، رموه بأنَّ معجزاته من قبيل السحر، وادعوا هذا، فلم يذكر في الجواب عليهم الفروق بين المعجز والسحر، ولا علّم أحداً من الصحابة ذلك ليجيب عليهم، مع أنّ تلك أحوج الأحوال إلى ذلك، وقال: لما جاءه رسول مسيلمة (آمنت بالله ورسوله)، وكذلك قال لابن صياد، ولما أخرج ابن صياد ما خبّأه له، قال: (اخسأ فلَن تعدُوَ قدرك)[2].

وثبت في غير حديث صحيح، أنه جُعل عِوَرُ الدّجال إمارة لنا نعرف به أنه ليس بربنا[3]، وقال: (نحن أمة أمية)[4].

---

(١) آل عمران / ٢٠.

(٢) رواه البخاري في الجنائز رقم ١٣٥٤، وفي الأدب ٦١٧٣ وغيرها، وأحمد ١/٢٩٦، ٤٠٤، و٢/١٤٨ و٣/٢٦٨.

أقول: وابن صياد هذا المشار إليه هو رجل من اليهود أو دخيل فيهم اسمه صاف كان عنده شيء من الكهانة والسحر وجملة أمره أنه كان فتنة امتحن الله به عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَيَّ عن بينة، ثم إنه مات بالمدينة على الأرجح، وقيل إنه فقد يوم الحرة فلم يجدوه. انظر: جامع الأصول ١٠/٣٦٢-٣٦٣، وشرح البخاري لابن حجر، والنهاية ٣/٦٦.

(٣) أحاديث الدجال رواها البخاري في الأنبياء رقم ٣٣٣٧ و٣٣٣٨، ومسلم في الفتن رقم ٢٩٤٥، والترمذي في المناقب ٣٩٢٦، وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣١٩.

(٤) جاء رسم الكلمة في المطبوع: «نحن أمد أمية» وهو تحريف لما أثبتناه، والحديث رواه البخاري في الصوم رقم ١٩١٣، ومسلم في الصيام رقم ١٥ (١٠٨٠).

وطريقهم إليه أن الله تعالى نقله لهم عند كثرة نظرهم فيما يرون من بدائع صنع الله، مع قوة غرائز عقولهم، ومثل ذلك غير ممتنع بأن الله تعالى يخلق العلم الضروري لمن يشاء، وقد ذَهب المؤيد بالله عليه السلام[1]، إلى هذا فقال: يجوز أن يعلم الله بالضرورة بعضُ الصالحين، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟؟.

السابع: لو كانت هذه الطريقة النظرية هي المعتمدة، لتوفرت دواعيهم إلى التصنيف فيها، والتحقيق والتدريس والتحليق والتلخيص والتدقيق، وإذن لصنف الأنبياء فيها التصانيف الجليلة، ودرسوا فيها الأزمان الطويلة كالفلاسفة والمتكلمين من علماء الإسلام، فإنهم لما اعتمدوا هذه الطريقة في النظر، توفرت دواعيهم إلى حثّ أتباعهم عليها، والفزع عند كل مشكلة إليها، حتى أن المسلمين وقفوا لتحصيل علم المنطق بين أيدي اليهود والفلاسفة، وحتى شرحوا كتب علماء هذه الطائفة، وحتى حكوا أقوالهم وعظموا في بعض المسائل أنظارهم، وحتى أن الواحد من النظار إذا أدركه أحد من أولاده أو أقاربه أو أصحابه، لم ير بداً من أن يدعوه إلى معرفة هذا الفن، ويحثه على إتقان علم النظر، ولم لا؟ وهو يعتقد أنه لا سلامة من شبهه المشبهين إلا به، ولا طريق إلى معرفة إله العاملين إلا هو؟ فما بال الأنبياء أهملوا هذا المهم، ولم يبالغوا فيه، كما بالغ فيه غيرهم؟ وكيف يصح في العقول أنه لا يعرف الصانع إلا بالعرض الحال في الجسم ثم ينقضي عمر الدنيا منذ كان أبو البشر آدم عليه السلام والأنبياء يدعون الخلق إلى الدين، ولا يفترون في كل وقتٍ وحينٍ؟ ثم لا ينقل إلينا نقلاً متواتراً،

---

(١) الإمام يحيى بن حمزة، سبق التعريف به.

بل آحاداً، تصريح من واحد منهم بأنَّ العَرَض[1] الذي في الجسم، أمر ثبوتي حادث غير الجسم.

أما أقوال المتقدمين من الفلاسفة في ذلك فتنقل إلينا، وقد ذكر ذلك السيد الجليل يحيى بن منصور بن العفيف بن المفضل بن الهادي عليه السلام[2] في قصيدة طويلة وقد ذكر تدقيق المتكلمين[3] وغُلوهم، منها قوله:

ويـرَوْنَ ذلك مـذهباً مستعـظمـاً	عن طول أنظارٍ وحسن تفكُّرِ[4]
ونَسُوا غِنا الإسلام قبلَ حدوثهم	عن كـلِّ قـولٍ حـادثٍ متـأخِّـرِ
ما ظنُّهم بالمصـطفى في تركـه	مــا استنبـطوه ونَهْيِـهِ المتقـرِّرِ
أيكــونُ في دين النبيِّ وصَحْبِـهِ	نقصٌ فكيفَ بـهِ ولمّـا يشعــرِ!
أوليس كـان المصطفى بتمـامـه	وبيـانـه أولى، فَلِمْ لَمْ يُخْبِـرِ؟
مـا بـالـه حتى السـواك أبـانـهُ	وقــواعــد الإســلام لم يتقــرَّرِ
إن كان ربُّ العرش أكمَلَ دينَهُ	فـاعجَبْ لمُبْطَنِ قـوله والمُـظْهَرِ
أو كان في إجمالِ أحمـد غنيةٌ	فـدَعِ التكلُّفَ للزيـادَةِ واقصِـرِ
ما كانَ أحمدُ بعدَ منعٍ كاتماً	لهــدايــةٍ كــلاّ وربِّ المَشْعَـرِ
بل كان ينكرُ كلّ قـولٍ حادثٍ	حتى المماتِ فلا تَشُكَّ وتمتري

(١) يقسم علماء الكلام الجسم إلى جوهر وعرض، والعرض هو صفة الشيء والجوهر ذاته.

(٢) شقيق المفضل بن منصور المتوفى سنة ٦٨٢ هـ، وهو من علماء الكلام، وفاته بسهل البون من بلاد همدان شمال صنعاء، مصادر الفكر العربي الإسلامي ص ١١١ عبد الله محمد الحبشي، مركز الدراسات اليمنية.

(٣) في المطبوع: المتكلين.

(٤) الأبيات من الكامل.

إلى قوله عليه السلام:

يكفِيْكَ من جهة العقيـدةِ مسلمٌ   ومن الإضـافة أحمـديٌّ حَيْدَري

والقصد الاستشهاد بكلامه في حدوث هذا العلم، لا في تقبيحه وإنكاره، وليس القصد بهذا الكلام إنكار صحّة علم الكلام، فإن فيه ما يعلم صحته بالضرورة، وإنما فيه إنكار اعتماد الأنبياء ومن عاصرهم من المؤمنين على أدلة الكلام الملخّصة، وبيان أن الذي كانوا عليه، يكفي المسلم، ولا يقال: كانوا يعلمون ذلك جملة، لأنه لا يصح ذلك لما مضى فخذه من موضعه.

الوجه الثامن: لو كان ذلك هو طريق الأنبياء إلى معرفة الله، لكانت الكتب التي جاؤوا بها كالقرآن الكريم وغيره، مشحونة بذكر الأعراض، والدليل على أنها أمور ثبوتية حقيقية، لا خيالية إضافية، وقول المتكلّفين: إن الله قد أشار إلى الدعاوى الأربع بحكايته لقول إبراهيم: ﴿إنِّي لا أُحِبُّ الآفِلين﴾[1] ـ ضعيف، لأنا نقول: فَلِمَ اكتفى بهذا المفهوم الضعيف في دليل إثبات الصانع؟ والعادة تقضي بأن الله تعالى يكثر من التصريح بالدليل الدال عليه سبحانه، مثلما أن ملكوت السموات والأرض، وأقاصيص الأنبياء، لما كانا دليلين عليه تعالى أكثر من التصريح بالحثّ على التدبر لما فيهما من الآيات، وإنما قلنا: إنه ضعيف بالنظر إلى الاعتماد على دلالة الأكوان، لأنه عليه السلام، رأى النجم على حالة واحدة، ولم يره ساكناً، وأيضاً قد رآه ينتقل في السماء من جهة المشرق إلى جهة المغرب، فما الفرق بين ذلك التنقل وبين التنقل من السماء إلى غير السماء؟.

وأيضاً قد كان يعلم حين رأى القمر بازغاً أنه قبل طلوعه آفِلاً، فلم

---

(١) الأنعام / ٧٦.

يكن أفوله الثاني بأدلَّ على عدم إلهيّته من أفوله الأول، وأيضاً: فلو استدَلّ بالأعراض على نحو استدلال المتكلمين، لما قال: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾[1]، أولاً، ولما فرق بين النجم والشمس والقمر، ولكان دليله على أن النجم محدث يدل بعينه، على أن كل جسم محدث، سواء كان مستدلاً لنفسه، أو ملزماً لغيره، لأنه يكون قد أقام الحجة على الخصم بحدوث الأجسام حين أبطل ربوبيّة النجم، فلِمَ أعاد الاستدلال عند رؤية القمر ثم أعاده عند رؤية الشمس؟ وأيضاً ليس هذا دليلاً يختص بالشمس بل الاستدلال بالنظر إلى الشمس وإلى أي جسم على سواء، فما خص النجم ثم القمر ثم الشمس إلا لِلَطيفة أخرى.

واعلم أن ظاهر كلام إبراهيم، عليه السلام، هنا لا يقضي بأنه استدل على الله بأنّ الجسم لا يخلو من الأكوان الثبوتية ولا يتقدمها، وأنها محدثة وأن ما لم يخُل من المحدث ولم يتقدمه فهو محدث مثله، ولا منصف يقول بأن هذا ظاهره، وأيضاً فقد كان عَلِم أنه محدث لأنه يستحيل أن يطلب معرفة خالقه ومحدثه وهو يشكّ هل هو محدث؟ بل قد كان يعرف أن له محدثاً بدليل قوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾[2]، لكنّه لم يكن قد اهتدى إلى أنه ليس بجسم، فإذا ثبت هذا ثبت أنه لم يعرف حدوث نفسه، بدليل الأعراض إذن، يعلم أن كل جسم من القمر وغيره محدث. فإن قيل: فَعَلامَ تحملونه؟ قلنا: نحمله على أن هذا كان منه في أول أحوال تكليفه في مهلة النظر، التي لا حرج على من أخطأ فيها، وإنه تحير في ربه من هو، ورأى أشرف الجهات جهة السماء العلوية، وأشرف ما فيها هذه الجواهر المضيّة، فقال في نفسه: انظر،

---

(١) الأنعام / ٧٥ و ٧٦ و ٧٧.

(٢) الأنعام / ٧٧.

هل يجوز أن يكون أحد هذه الأشياء ربك؟ وكان قوله: ﴿ هذا ربي ﴾، ليس قطعاً حصل بعد النظر، لكن فرض وتقدير، فبات وظلّ يتفكر ويتحيّر في قرائن الأحوال، وهو وإن كان يعترض عليه في النظر بأحد الوجوه المذكورة المقدمة، فإنه يجوز عليه الخطأ في مثل ذلك إذا لم يكن استدلّ بدليل الأكوان، فإن الخطأ يجوز على الأنبياء عليهم السلام، في غير التبليغ بالإجماع، بل الصغائر تجوز عليهم عندنا فتأمل ذلك، ولم يزل ينظر حتى أداه نظره إلى أن لهذه الجواهر المضيئة خالقاً، مثلما قد كان أداه إلى أن له خالقاً على ما تقدمت إليه الإشارة.

فإن قيل: فهل يجوز أن يكون قد عرف أنها ليست أرباباً، وإنما قال ذلك محتجاً على الكفار، وكان قوله: ﴿ هذا ربي ﴾، من قبيل تسليم الجدَل، وهو من طريق المنصفين حتى يعقب التسليم بما يمنع منه؟ قلنا: ذلك جائز، ولكن لا يحصل به غرض، وفيه بعدٌ.

أما أنه لا يحصل به غرض لمثبتي الأكوان، فلما تقدم أن الحجة كانت تلزم خصمه حين أبطل ربوبية النجم، فلم أعادها في القمر والشمس وهي واحدة؟ ألا ترى أنه لا يحسن أن يحتج على كل نجم بذلك، ولا يحسن أن يحتج الواحد على كل جسم بذلك؟ أعني: كلما وجد جسماً أورد الدعاوي الأربع محتجاً على حدوثه.

وأما أن فيه بُعْداً، فلوجوه:

أحدها: أنه خلاف الظاهر ولا موجب للتأويل، فإن قلت: الموجب له أن لا تنسبه إلى الجهل بالله. قلت: هو جائز عندنا، بل واجب عند أبي هاشم[1] على كل نبي وملَك في مهلة النظر، مع أنه

---

(١) رأس الفرقة البهشمية إحدى فرق المعتزلة وتمام اسمه: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبّائي، من أبناء أبان مولى عثمان بن عفان (رض) وهو من كبار=

عليه السلام في تلك الحال لم يثبت أنه قد كان نبياً، فجاز عليه ما لم يكن من المنفرات من المعاصي، وكون الجهل بالله في حال من الأحوال كفراً أو كبيرة، إنما يثبت بالشرع، فمن أين أنه كان كذلك في حقه عليه السلام؟.

الثاني: أنه حين قال في القمر: (هذا ربي) تأخر عن الجواب إلى أن غرب القمر في آخر الليل، ثم فعل ذلك في الشمس، فتأخر في الجواب من طلوعها إلى غروبها، وذلك يبعد من المحتج على الخصم لوجهين:

أحدهما: أن الخصم لا ينتظره في المجلس، يتطلب الجواب ليلةً ويوماً. فإن قلت: الخصم وإن لم ينتظره، لكنه إذا أفل القمر قصد إلى ذلك الذي كان يحتج عليه إلى حيث كان، فألزمه حدوث القمر. قلت: ليس غرض المحتج أن يلزم الخصم إلا في تلك الحال، لا سيّما إذا كان الدليل حاضراً معه في الحال، فإنه لا يؤخره، وإذا قلنا: إن دليله هو دليل الأكوان، فهو حاضر في تلك الحال، أفل القمر أو لم يأفل.

الوجه الثاني: أن المحتج على الغير، لا يجوز أن يسلم للغير ما يدعي، إلا ويبين في تلك الحال أن تسليمه تسليم جدل، وتعقبة من غير تراخ بإبطال كلامه، لأنه لو جاز ذلك يوماً، لجاز شهراً، أو سنة، أو العمر كله.

فإن قلت: يجوز التأخر إذا كان الدليل مع التأخر أوضح، قلت: إذا كان دليله دليل الأكوان، لم يكن بعد الأفول أوضح منه قبله، وأيضاً

= رجالات المعتزلة وعلم الكلام له آراء خالف بها أقرانه من المعتزلة وتبعته فرقته المنسوبة إليه وفاته حوالي عام ٣٢١ هـ ببغداد. وفيات الأعيان جـ٣ ص١٨٣، وكذلك تاريخ طبق الحلوى ص ٥٣ من تحقيقنا.

فكان يمكنه أن يقول: من المعلوم للجميع، أنه يأفل، وهذا يكفيه، لكنه لم يكن يعلم ذلك على ما سيأتي.

الوجه الثالث: مما يدل على بُعْد، أن ذلك منه عليه السلام على وجه الاحتجاج على الغير، أنه قال عقيب أفول القمر: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّين ﴾[1]، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أفَلَ قال لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾[2] الآية، وهذا لا يقوله في مثل هـذا الحال إلا المتحير.

الوجه الرابع: قوله في الشمس: ﴿ هٰذَا رَبِّي هٰذا أَكْبَرُ ﴾[3]، فإن قوله: هذا أكبر، لا يليق بحالة النظر.

الوجه الخامس: أن الأُفول في اللغة، ليس باسم لأحد الأكوان، لنه قد يكون مصاحباً لها، وقد لا يكون مصاحباً لشيء منها كما لو غطت سحابة على الشمس، وإبراهيم عليه السلام، إنما جعل العلّة الأفول، لا ما يصحبه من الحركة. ولو أراد ذلك لذكره، وأيضاً فالحركة من غير سكون لا تدل.

الوجه السادس: أنه يجب أن يكون نزاعه إما لواحد يعبد هذه الثلاثة: النَّجْمُ والقَمَرُ والشَّمسُ، أو لاثنين، أو لثلاثة، يعبد كل واحد منهم واحداً من هذه الكواكب، والقول بهذا من غير نقل بعيد، وإنما الذي في القرآن، أنها كانت تعبد في زمانه الأصنام كما قال تعالى في قصة كسره عليه السلام لأصنامهم[4].

---

(١) الأنعام / ٧٧.

(٢) الأنعام / ٧٧.

(٣) الأنعام / ٧٧.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى بلسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وتالله لأَكِيدَنّ أصنامكم بعد أن تُوَلّوا مدبرين. فجعلهم جذاذاً إلاّ كَبيراً لهم لَعَلّهم إليه يرجعون﴾، الأنبياء/٥٧ و ٥٨.

الوجه السابع: أنه قال: هذا ربي، ولم يقل للخصم: هذا ربك، ولا قال: هذا ربنا، ولا هذا ربٌّ، وقلّ ما يتفق مثل هذا من منكر لربوبيَّة شيء قاطع ببطلانها وإن كان جائزاً.

الوجه الثامن: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رأى كوكباً قال هذا رَبِّي﴾[1]، فهذا يشعر بأن عِلّة رؤيته للكوكب جنون الليل عليه[2]، وعلة قوله: هذا ربي، رؤية الكوكب كما تقول: فلما دخلت دار الإمارة، رأيت رجلاً وسيماً قلت: هذا الأمير، ولو كان كما قالوا لقال، فلما قيل له: النَّجم رَبُّك، قال: هذا ربي.

الوجه التاسع: إن الآية تدل على أنه لم يكن قد رأى النجوم ولا القمر والشمس، لأنه لو كان قد عرفهن، لما كان لترتيب إبطال ربوبية النّجم على إبطال ربوبية القمر، وإبطال ربوبية القمر على إبطال ربوبية الشمس معنى رأساً، ولا كان لانتظاره لأفولها معنى، لأن أفولها فيما مضى من الزمان قد كان عالماً به، فكان علمه به مغنياً له في الاحتجاج عن انتظار الأفول المستقبل، ألا ترى أن الواحد منا لو أراد أن يحتج على صاحبه بغروب الشمس، لم يحتج ينتظرها ويرقبها حتى تغرب، ثم يحتج وهي غاربة؟ فإذا ثبت أنه لم يكن قد رأى هذه الأمور، دل هذا على أن كلامه هذا كان منه في أول نَظَرِه[3] ومبدأ تكليفه، وحينئذ لم يكن قد تصدى لمناظرة أهل الكفر، بل ما كانوا قد عرفوا شخصه، ومن البعيد أن يتصدى أهل الكفر للرد على مسلم، قبل أن يشهر إسلامه

---

(١) الأنعام / ٧٦.

(٢) أي سَتْره لأن كل ما سُتِرَ عنك فقد جُنَّ عنك، وفي الحديث: جَنَّ عليه الليل، أي ستره، وبه سمي الجنُّ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار وكذلك الجنين لاستتارة في بطن أمه.

(٣) النظر هنا بمعنى التعلم والفراسة، النهاية جـ ٥ ص ٧٧.

ويشتد عليهم جداله. فإن قيل: فلمن قال بعد أفول الشمس: ﴿ إنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ ﴾[1] أليس هذا يدل على أنه كان عنده من يخاصمه؟ قلت: لا يدل على ذلك، بل يحتمل أنه قال ذلك لبعض من خاصمه بعد ذلك الموقف بمدة، وبعد أن اشتهر عليه السلام بالمخالفة لهم، سلمنا أنه قاله في تلك الحال، لكن يحتمل أنه حضره في حال استدلاله أحد، إما أمه وأبوه معاً، أو غيرهما من الناس، فأنكر عليه ما رآه من الإعراض عن عبادة الأصنام، فقال له ذلك عقيب تناهي نظره الذي أداه إلى أن لجميع السموات والأرض وما فيهن خالقاً واحداً.

عاشرها: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيمَ مَلَكوتَ السَّمواتِ وَالأرضِ وَلِيَكونَ مِنَ الموقنين، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللّيلُ رأى كوكباً ﴾[2] الآية، فدلت الآية على أن الله أراه الملكوت ليوقن بالله ويستدل عليه، لا ليناظر ويجادل، فإن قيل: إن هذه الواو التي في قوله: ﴿ وَلِيَكونَ مِنَ الموقِنين ﴾[3] واو عطف، والمعطوف عليه محذوف، والتقدير ليحتج على القرين وليكون من الموقنين، قلنا: لا نسلم أنه يجب في الواو أنها واو عطف، لأن حذف المعطوف عليه لا يجوز إلا بعد حروف الجواب، نعم، وبلى، وأجل، وجَيْر، وإنّ، كقول ابن الزبير: إن وراكبها[4]،

---

(١) الأنعام / ٧٨.

(٢) الأنعام / ٧٥ و٧٦.

(٣) الأنعام / ٧٥.

(٤) يريد به عبد الله بن الزبير بن العوام ٩٣ هـ/٦٩٢م مشهور معروف وما يشير إليه الإمام هنا حادثته مع فضالة بن شريك بن خويلد الأسدي أحد أتباع بني أمية الذي قال لابن الزبير: إن ناقتي قد نقب خُفُّها فاحملني، فقال عبد الله: ارفقها بجلد، واخصفها بهلب، وسر بها البردين، فقال فضالة: إنما أتيتك مستحملاً لا مستوصفاً، لا حمل الله ناقة حملتني إليك! فقال ابن الزبير: إنّ وراكبها. أي: نعم وراكبها. وفي معنى إن هذه، يقول رؤبة في رجز له: =

وكقولك لمن قال: ما جاء زيد: بلى وعمرو، لأن ذلك لا يجوز إلا مع الإضمار، والإضمار مجاز، والمجاز خلاف الأصل، بل نقول: يحتمل أنها زائدة مؤكدة، فزيادات الحروف في لغة العرب كثيرة، مثل قوله: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إذا جاؤوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها ﴾[2]، ونظائر ذلك، سلّمنا أنها عاطفة، لكن المعطوف عليه لا يقدر فيكون مجملاً، إنما قلنا: إنه لا يقدّر لأنا إن قدرنا جميع المحتملات، نحو أن نقول: ليعتبر، لينظر، ليستدل، ليجادل، ليعلم، ونحو ذلك، مما لا يكاد ينحصر، فأحدها يغني تقديره عن الآخر، وتقدير مضمر مستغني عنه لا يجوز، إذ لا يجوز الإضمار إلا لضرورة، ولا ضرورة بنا على إضمار الجميع، وإن أضمرنا واحداً منها معيناً، كان ذلك تحكماً، فلزم الإجمال في المضمر، سلمنا أنها ليست مجملة، لكن لا يجوز أن يكون المضمر إلا مما يدل عليه سياق الكلام، أو معنى الخطاب أو لفظه. ألا ترى أنه لا ينبغي أن يكون المضمر: لِيُشْكَرَ اللهُ على نعمةِ السّمع، وليكون من الموقنين، لما لم يكن في الآية ما يشعر بذلك، وليس في اللفظ ولا في المعنى ما يدل على أنه أرى الملكوت ليحتج، بل ليوقن؟ فوجب أن يكون المقدر من جنس ذلك الذي دل عليه ظاهر الآية، فنقول: يحتمل أن يكون المحذوف مؤخراً، تقديره: وليكون من الموقنين أريناه الملكوت، ويحتمل أن يكون مقدماً تقديره:

= قالت بناتُ العَمّ يا سلمى وإن   كـان فقيراً معـدمـاً قـالت وإن

انظر: شرح أبيات مغني اللبيب جـ٨ ص٧. عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق. وكذلك النهاية جـ١ ص٧٨.

(١) الصافات / ١٠٣. والآية هنا تشير إلى خضوع إبراهيم وولده عليهما السلام لأمر الله، فأسلما هنا، بمعنى أطاعا، وتلّه للجبين إشارة إلى طرح إبراهيم ولده ـ عليهما السلام ـ أرضاً ليذبحه طاعةً لربه.

(٢) الزمر / ٧١.

ليعتبر وليكون من الموقنين، سلمنا أن ذلك التقدير الذي قدرتموه جائز تقديره، ولكن ليس تقديره ينافي غرضنا، لأن المعنى للآية يكون: إنا نري إبراهيم الملكوت لأمرين، أحدهما: أن يجادل الكفار، والثاني: أن يكون من الموقنين، وإذا كان ذلك معناها دل على مرادنا، لأن الأراءة للملكوت سبب في الاحتجاج واليقين، وهما مسببان عنها، والمسبب عنها، لا يتقدم السبب في الظاهر وإن جاز ذلك على تأويل، لكن لا يجوز العدول إلى التأويل من غير موجب، فدلّ ذلك ظاهراً لا قطعاً على أن إبراهيم حالما أراه الله الملكوت ما قد كان موقناً وذلك في مهلة النظر وأول أحوال التكليف، وذلك يدل على ما أشرنا إليه من أنه كان ناظراً لنفسه، لا مجادلاً لغيره، إذ لا يصح منه أن يحتج على غيره قبل أن يعرف.

فإن قيل: فإنّا إذا قدرنا أن المعطوف عليه ليحتج على أهل الكفر، وليكون من الموقنين، كان ظاهر الآية يقتضي أن احتجاجه عليهم قبل يقينه، فيجب تأويل اليقين بأن معناه الزيادة في اليقين مجازاً.

قلنا: لا نسلم لكم أن ظاهر الآية يقتضي تقدم الاحتجاج منه على يقينه، لأن ذلك ليس يلزم إلا لو كانت الواو للترتيب أو للمعية، أما إذا كانت للجمع فقط، كما هو قول البصريين وجمهور أئمة النقل، فلا يلزم ما ذكرتم، وتقدير الكلام في الواو مستوفى في النحو والأصول.

حادي عشرها: قوله تعالى في آخر حكايته لاستدلال إبراهيم ـ عليه السلام ـ على حدوث النجم والقمر والشمس: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾[1] وموضع الاحتجاج من الآية أنه عطف

---

(١) الأنعام / ٨٠.

على هذه القصة قصة أخرى معناها أن إبراهيم تَحَاجّ هو وقومه، فلو كانت هذه القصة الأولى محاجة بين إبراهيم وبين قومه، لما حسن بعد الفراغ منها أن يقال: وحاجّه قومه، كما لا يحسن أن يقول: اختصم زيد وقومه في قدم العالم، فقال: إن ما فيه من الصنعة تدل على حدوثه، واختصم قوم زيد، هم وزيد، في حدوث العالم، فإن قلت: لعل المعنى في الآية: إنه احتج عليهم بذلك الاحتجاج وحاجوه، أي وردّوا عليه حجّته وما قبلوها، قلت: هو يبعد لوجوه:

أحدها: أنه قد فصل بين احتجاجه ذلك، وبين قوله: وحاجه قومه، بفصل طويل.

الثاني: أن ظاهر الآية يقتضي أنهم ابتدؤوه بالمحاجة، لأنه ذكر جوابه عليهم، وهو قوله: أتحاجّوني في الله.

والظاهر في احتجاجه الأول على حدوث النجم والقمر والشمس، إنه ليس بمحاجة، فلا يخالف الظاهرين في الآيتين لغير موجب.

الثالث: أن الواو تقتضي أن القصة الثانية غير الأولى، فلو كانت هي الأولى لجاءت إما بغير واو، نحو أن تقول: قالوا كذا، مثل ما حكى عنه في جوابه عليهم قال: أتحاجوني، ولم يقل: وقال أتحاجوني، كما ذكره السكاكي[1] في محاجة موسى عليه السلام وفرعون، وكما ذِكْرُ ذلك مقررُ في علم المعاني[2]، فإن كان لا بد من حرف عطف يلائم

---

(١) هو يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي كنيته أبو يعقوب، من علماء العربية وآدابها، مولده بخوارزم سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م، ووفاته سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م، من مصنفاته كتاب مفتاح العلوم، وله رسالة في علم المناظرة. الأعلام جـ ٨ ص ٢٢٢.

(٢) من العلوم التي يُعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وموضوعها: اللفظ العربي من حيث إفادته المعاني التي هي بحد ذاتها الأغراض المقصودة للمتكلم

بين الكلامين، لأنه لم يتقدم ما يدل على أن أول الكلام موجّه إليهم حتى يؤتى بجوابهم بغير عطف، فيكون حرف العطف هو الفاء لأنها اللائقة بمثل ذلك، إذ فيها معنى السبب، وإن محاجّتهم له مسببة عن احتجاجه وجواباً عليه، فنقول: فحاجّ إبراهيم قومه.

ألا ترى أنك إذا قلت: إني اجتمعت أنا ورجل كافر، فقلت: إن لهذا العالم صانعاً، وكان ذلك الكافر قد أنكر قولك وقال: ليس للعالم صانع، على جهة الردّ عليك، لم يحسن أن تقول: وقال إنه ليس للعالم صانع، بل تقول: فقال: إنه ليس للعالم صانع، وإن كان الإتيان بالواو جائزاً على جهة الفرض والتقدير، لكن الفاء أوقع، وتأويل القرآن على ما يلائم الأفصح أولى من تأويله على ما يلائم الفصيح.

فإن قيل: فأيّ أمر في الأفول أعتقده دليلاً على بطلان ربوبية النجم والقمر والشمس على غير طريقة المتكلمين في الأكوان؟.

قلت: لنا أن نجيب، بأنه قد أشار إلى أن الأفول دليل بطلان الربوبية، مثلما أن المخلوقات دليل على الله تعالى، لكنه لم يبين ما وجه دلالة الأفول، فلم يلزمنا ذِكْر ذلك لأنه ليس مما نطق به القرآن ولا مما نعلمه، لأن من الجائز أن وجه الدلالة أمر لم يخطر على قلوبنا. وهذا ليس مما يلزم أن يعرفه الراسخون على القول بأنهم يعلمون كل معاني القرآن، لأن هذا ليس من معاني القرآن، لأن معنى القرآن ما أخذ من لفظه.

ووجه الدلالة الذي أراده عليه السلام، ليس مما يؤخذ من لفظ

بقصد جعل الكلام مشتملاً على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال وفائدة هذا اللون من العلوم: الوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور كلام العرب، وأول من وضع أسسه الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ.

القرآن، وأكثر ما في الباب أن يعرف الناظر وجهاً في الدلالة على ذلك، فمن الجائز أن يقصد عليه السلام وجهاً آخر، إذ لا مانع أن يدل الدليل من وجهين. تلخيصه[1] أنا إن طلبنا وجهاً فلم نجد، فعدم الوجدانِ لا يدل على عدم الوجود، وإن وجدنا وجهاً فلا دليل على أنه لا وجه سواه، إلا بطريقة الحصر والسبر وهي باطلة، لأنها استدلال على عدم الوجود بعدم الوَجَدان، وصحته غير معلومة لا بالضرورة ولا بالدلالة، بل خلافه معلوم بالتجربة الضرورية، فكم من طالب دليلاً أو جواباً لا يجده في يومه، ثم يجده في غده، وما جاز في اليوم، جاز في العمر، وإما بطريقة النفي والإثبات ولا سبيل إليها.

فإن قال قائل: إني طلبت فلم أجد وجهاً، أو: طلبت فلم أجد إلا وجهاً واحداً. قلنا: عدم الوِجْدان لا يدل على عدم الوجود، وهذا هو الوجه في الجواب. وأما قول المتكلمين: إن قوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ فيهما آلِهَةٌ إلَّا اللهُ لَفَسدَتا﴾[2]، وارد على طريقة أهل الكلام في نفي الثاني، فليس كذلك، وبيان ما ذكرنا أن المتكلمين بنوا دليلهم على مقدّمتين:

إحداهما: أنه يلزم من تجويز الإلٰهين صحة التنازع بينهما، لا وقوع التنازع، والآية مصرّحة بأنه ينتفي الثاني بدليل وقوع الفساد، لا بدليل صحّته، وهم يقولون بدليل صحّته لا بدليل وقوعه، فأين إحدى الطريقين من الأخرى؟ إنما قلنا إن الدليل في الآية، هو وقوع الفساد لقوله تعالى: ﴿لَفَسَدتا﴾، ولقوله: ﴿وَلَعلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾[3]،

(١) كذا وربما استقام معنى العبارة أكثر لو أنه قال: وتلخيص ذلك.
(٢) الأنبياء/٢٢.
(٣) المؤمنون/٩٢.

ولقوله تعالى: ﴿ إذاً لابْتَغوا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً ﴾[1].

المقدمة الثانية: أن المتكلمين قالوا: فمن غُلِبَ فليس بإله وإن تمانعوا كلهم فكلهم ليسوا بآلهة. وقوله تعالى: ﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾، ليس من طريقتهم في شيء، لأنه قطع بأنا متى قدّرنا مع الله آلهة، علا بعضهم على بعض، والمتكلمون يقولون: لو كان مع الله آلهة، لم يخلُ الحال، إما أن يعلو بعضهم على بعض، أو لا يعلو بعضهم على بعض. فإن قلت: القرآن جاء على الإيجاز، قلت: حيث لا يكون مُخِلاً، أما هذا فإنه مخلّ لو كان المراد به الاستدلال على طريقة علماء الكلام.

ولعلّ هذه الآيات، وردت على اعتقاد المشركين لجواز الأرباب المتغالبين الذين بعضهم أغلب لا على تقدير إلّهين أو أكثر، كل منهما قادر على كلّ شيء مستحيل عجزه عما أراد، فتكون مقصورة على ما نزلت بسببه من زعم المشركين وجهلهم، وأما نفي الثاني على اعتقاد المتكلفين، فتكون الحجّة فيه السمع الضروري، وهو هنا صحيح بالإجماع.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إذاً لابْتَغوا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً ﴾ ليس بوارد على طريقة المتكلمين، لأن معنى الآية: أن ابتغاءهم إلى ذي العرش سبيلاً، دليل على انتفائهم، لأن وجودهم يستلزم وجود الانتفاء، والمتكلمون لا يقولون بذلك، إنما يقولون: إن انتفاء صحة ابتغائهم إلى الله، هي الدليل، لأن وجودهم يستلزم صحة للابتغاء، فإذا ثبت أنه ليس في القرآن ولا سائر الكتب المنزّلة، ولا كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا كلام غيره من الرسل، إلا وله شيء صريح على منهج أهل

(١) الإسراء/٤٢.

النظر، ثبت أن النظر على هذا الوجه ما كان مفزعهم أبداً، إذن لقضت العادة بخوضهم فيه، وعنايتهم به، وحثهم عليه، وكتابتهم له.

فإن قيل: فهل تنكرون النظر؟ قلنا: لا، فإن قيل: ففيم يكون النظر؟ قلت: في أمرين: إما في المخلوقات البديعة الصنعة اللطيفة الحكمة، من سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وحيوانات محكمات ذوات آلات، وأدوات منها آلات النظر والشم والسمع والطعم، كالأذن والعين والأنف والفم، إلى غير ذلك مما تقدمت إليه الإشارة، فإنك عندما تنظر إلى ذلك، تعلم ضرورة عقيب النظر أن لها صانعاً عالماً حكيماً قادراً، ولما كانت هذه طريقة موصلة إلى العلم، امتلأ القرآن منها، فإن الآيات الشرعية التي في القرآن أقلّ من ستمائة آية، وبقية الآيات في هذا القبيل، في الترغيب والترهيب، وفي قصص الأنبياء وأخبارهم وقرائن أحوالهم الدالة على صدقهم، وهو الأمر الثاني، مما ينظر فيه وليت شعري على كلام المتكلمين، لم خص الله الحث على النظر في السماوات ونحوها؟ وما الفرق في دلالة الإعراض بين السماء وذرة من تراب؟ وشهرة الحث على النظر في هذا الأمر ظاهر، لا يحتاج إلى إيراد شيء مما في القرآن منه لكثرته وشهرته.

الأمر الثاني مما يفيد النظر فيه العلم، هو قصص الأنبياء وأحوالهم، وكذلك لما كان طريقاً يفيد العلم ويشرح الصدر ويثلج الفؤاد، أكثر الله من ذكر أحاديثهم في الكتاب العزيز. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الأَلْبَاب﴾[1]، وبقوله تعالى: ﴿وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيكَ من أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَك﴾[2] فهذا كلّه دليل واضح على أن النظر في أحوالهم يفيد العلم.

(١) يوسف/١١١.

(٢) هود/١١٩.

واعلم أن توسيع دائرة الأسئلة يُؤدي إلى الخوض في الاحتجاج على الضروريّات بالظنيّات، فإنَّ طائفة الأشعرية على كثرتهم قد أنكروا التحسين والتقبيح، وهو الضروري، وطائفة السوفسطائية[1] قد أنكروا المشاهدات، وطائفة السُّمَنية[2] قد أنكروا المتواترات، وأبو الحسين وغيره قد أنكر كون العلم بالمتواترات ضرورياً، والناس بحر ليس له ساحل ومن رام الاجتماع على رأيه لم يحصل على طائل، فلو كان الزمان يسمح بالاجتماع ما كان بين القرابة والصحابة نزاع، ولا خالف الحسنَ أخوه الحسين، ولا سماه أصحابه مُذلّ رقاب المؤمنين[3]، ولا

---

(١) مدرسة فلسفية قديمة ازدهرت في اليونان كان لفكرها أثر واضح على الفكر الفلسفي عند قدماء الإغريق تعتمد في نهجها على قياسات مركبة من الوهميات بقصد إفحام الخصوم نحو قولهم: الجوهر موجود في الذهن، وكل موجود في الذهن قائم بالذهن عرضاً، إذاً فالجوهر عرض. فمن خلال هذا القياس نلاحظ أن إثبات الشيء هو نقيض الشيء، وهكذا. انظر: ربيع الفكر اليوناني ص ١٦٥، عبد الرحمن بدوي. ط. ٤، ١٩٦٩.

(٢) بضم السين وفتح الميم، فرقة دهرية من الهند، تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار.

(٣) من المعروف أن الحسن هو أكبر أبناء علي رضي الله عنهم جميعاً، فلما استشهد علي أصبح الحسن بحكم السن أول المطالبين بالخلافة فبايعه بعض أهل العراق وفارس، لكنه كان على خلاف الحسين راغباً في مجانبة الفتنة جانحاً إلى المسالمة، ومما يروى بهذا الصدد أن أتباعه أشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية فأطاعهم، وزحف بمن معه والتقى مع جيش معاوية في موضع يقال له: مسكن، من أرض الأنبار، فهاله أن يقتتل المسلمون، فكتب إلى معاوية شروطه للصلح، وخلع نفسه من الخلافة لمعاوية في القدس عام ٤١ هجرية الذي سمّى بعام الجماعة نظراً لاجتماع كلمة المسلمين، وقد اتهمه البعض على نحو ما يشير إليه الإمام هنا بفتور العزيمة والميل إلى الدعة والاستسلام، ومما يروى بهذا الصدد أن الحسن قال لأخيه الحسين حينما نصحه بمتابعة قتال معاوية: والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطين عليك بابه حتى أقضي بشأني وأخرج منه. وهذا ما يعنيه الإمام من أنه اشتهر بين أصحابه بمذل رقاب المؤمنين.

اختلف الوصيّ وابن عباس، ولا اشتهرت المنازعة بين زيد[1] وعبد الله الكامل[2] في الناس، ولا اختلف الأخوان الحسن وأبو هاشم، ولا افترق الشيخان أبو علي[3] وابنه أبو هاشم فاقطع حبائل الرجاء لألفة الألفاء، وتأسَّ بقول بعض الظرفاء:

إن لم أجدْ لي في الأنام مناطِقاً   يَرضى الصوابَ ويكرهُ التَّقْييدا[4]
ناطقت أطرافَ اليراع فَسَاقطتْ   دُرَراً تروقُ فرائداً وعقودا

وتسلَّ إذا خالفك الأصحاب والقرباء، متعزياً بقول بعض الأدباء:

إن اشتغلتُ بعلم الناس أحفظه   دهري فذلك شيء لا يواتيني[5]

---

(١) يقصد زيدَ بن علي بن الحسين رأس المذهب الزيدي، كنيته أبو الحسين العلوي الهاشمي ويعرف كذلك بزيد الشهيد ٧٩ ـ ١٢٢ هـ.

(٢) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، مولده بالمدينة سنة ٧٠ هـ. سجنه المنصور في الكوفة بجريرة ولديه محمد وإبراهيم ولبث في سجنه حتى وفاته سنة ١٤٥ هـ، وموضوع الخصومة المشار إليها هنا بين زيد وعبد الله بسبب خلافهما على بعض الأملاك الموروثة عن جدهما علي (رض). سمط النجوم العوالي ١٥٠/٤.

(٣) أبو علي هذا هو محمد بن عبد الوهاب الجبّائي المنسوبة إليه الفرقة الجبّائية إحدى فرق المعتزلة، انفرد عن أصحابه بعدة مسائل، منها أنه أثبت إرادات حادثة يكون الله بها موصوفاً مريداً، والقول بأن الله تعالى متكلم بكلام يخلقه هو، وقال بنفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، وغير ذلك من المسائل التي لا مجال هنا لذكرها. وما يشير إليه الإمام هنا هو خلاف محمد أبو علي وابنه أبو هاشم عبد السلام المنسوبة إليه فرقة البهشميه حول بعض هذه المسائل، وهي خلافات مشهورة عند أهل الكلام، ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل فلتنظر في مظانها.

(٤) من الكامل.

(٥) من البسيط.

وإن رجعتُ إلى علمي لأحرسَهُ فطالبُ العلم يمضي ليس يأتيني

فنسأل الله التوفيق والعصمة، وأن يجعلنا من أهل الحق من هذه الأُمّة، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير. والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

قال المؤلف رحمه الله: فرغت من كتابة هذا في اليوم الرابع أو الخامس من شهر رجب سنة (٨٠١)[1] إحدى وثمانمائة هجرية على صاحبها وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

*   *   *

تم كتاب البرهان. بحمد الله العزيز الرحمن
والحمد الله على جزيل فضله ونواله
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى الطاهرين من آله.
وحسبنا الله ونعم الوكيل
نعم المولى ونعم النصير

*   *   *

(١) حوالي العشر الثاني من شهر أذار عام ١٣٩٩ م.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس قوافي الشعر

القافية	البحر	اسم الشاعر	الصفحة
البهائم	طويل	-	٤١
تفكر	كامل	يحيى بن المنصور	١٠٢
التقييدا	كامل	-	١١٨
خطب	البسيط	بشار بن برد	٣٨
خطيبها	طويل	سحبان وائل	٣٩
الرقباء	كامل	-	٣٧
الشعر	بسيط	-	٣٧
شمم	بسيط	البوصيري	٢٧
صيامي	طويل	-	٣٣
ضلال	طويل	الرازي	٩٨
الكلم	متقارب	-	٩٩
لشتات	طويل	الزمخشري	٤٢
مجرد	طويل	-	٣٤
المقنع	طويل	أبو العلاء المعرّي	٥٢
واحد	متقارب	أبو العتاهية	٩٣
يتغمغم	كامل	الرازي	٩٨
يواتيني	بسيط	-	١١٨

فهرس الكتب

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهـرس الـطوائف والقبـائـل والجماعات

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ ابن الأثير علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، أسد الغابة في معرفة الصحابة، طهران بدون تاريخ.

٣ ـ ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد

أ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ط/١ دمشق.

ب ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية ط/٢ القاهرة ١٩٦٣.

٤ ـ ابن حنبل أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ.

٥ ـ ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

٦ ـ ابن سلام الهروي القاسم، كتاب الأمثال، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث ط/١ دمشق ١٩٨٠.

٧ ـ ابن طولون الدمشقي محمد، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين تحقيق محمود الأرناؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣.

٨ ـ ابن العماد الحنبلي عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الأفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

٩ ـ ابن كثير الدمشقي الحافظ أبو الفداء، البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت ط/٢ ١٩٧٧.

١٠ ـ ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

١١ ـ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مجموعة من الباحثين، مطبعة البابي الحلبي ط/٢ ١٩٥٥ مصر.
١٢ ـ أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق مجموعة من الباحثين بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت بدون تاريخ.
١٣ ـ الأصبهاني أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، مصر ١٩٧٤.
١٤ ـ باشا البغدادي إسماعيل.
أ ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، وكالة المعارف ١٩٤٥.
ب ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ط/٢ طهران ١٩٦٧.
١٥ ـ البخاري، صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.
١٦ ـ بدوي عبد الرحمن، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية ط/٤ القاهرة ١٩٦٩.
١٧ ـ البديهي السكسكي اليمني عبد الوهاب، طبقات صلحاء اليمن ـ معروف بتاريخ البديهي ـ تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، بدون تاريخ.
١٨ ـ البغدادي عبد القادر بن عمر، شرح أبيات مغني اللبيب، تحقيق رباح ودقاق، دار المأمون للتراث، دمشق بدون تاريخ.
١٩ ـ البوصيري محمد بن سعيد، ديوان البوصيري، تحقيق محمد سعيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي ط/٢ ١٩٧٣ مصر.
٢٠ ـ البيهقي أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية بيروت ط/١ ١٩٨٥.
٢١ ـ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، المطبعة الوطنية.
٢٢ ـ تغري بردي يوسف، النجوم الزاهرة في مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٣.
٢٣ ـ الحيشي عبد الله محمد، مصادر الفكر الإسلامي، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء بدون تاريخ.
٢٤ ـ الحموي الرومي البغدادي ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.

٢٥ ـ الخطيب البغدادي أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٢٦ ـ الذهبي محمد بن أحمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، دار إحياء الكتب العربية ط/١ ١٩٦٣.
٢٧ ـ الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين ط/٥ بيروت ١٩٨٠.
٢٨ ـ الزمخشري محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق حقائق غوامض التنزيل ط/٢ مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٣.
٢٩ ـ السخاوي محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ.
٣٠ ـ الشهرستاني الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز وكيل ـ دار الفكر، بيروت بدون تاريخ.
٣١ ـ الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ط/١ ١٣٤٨ هـ.
٣٢ ـ الطبري محمد بن جرير، تاريخ الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف ط/٢ مصر بدون تاريخ.
٣٣ ـ الطهراني محمد الحسن ـ شهير بالشيخ آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة دار الأضواء ط/٣ بيروت ١٩٨٣.
٣٤ ـ العجلوني الجراحي إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس، دار إحياء الذات العربي، بيروت ط/٣ ١٣٥١ هـ.
٣٥ ـ العسقلاني أحمد بن علي بن حجر،
أ ـ الإصابة في تمييز الصحابة تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ط/١ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة.
ب ـ أنباء الغمر بأنباء العمر، مكتب الدارسات الإسلامية، دمشق.
ج ـ تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية، المدينة المنوّرة ١٩٨٠.
د ـ فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري، المطبعة السلفية، بدون تاريخ.
٣٦ ـ العصامي المكي عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء

الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية بدون تاريخ.
٣٧ ـ فيصل، الدكتور شكري، ديوان أبو العتاهية، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق بدون تاريخ.
٣٨ ـ القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠.
٣٩ ـ القنوجي صديق بن حسن، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨.
٤٠ ـ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٥٧.
٤١ ـ المكي محمد بن أحمد الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٩٦٢.
٤٢ ـ النووي الدمشقي يحيى بن شرف، رياض الصالحين، تحقيق رباح ودقاق، دار المأمون للتراث ط/٤ دمشق ١٩٨١.
٤٣ ـ النيسابوري مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط/١ ١٩٥٥.
٤٤ ـ الوزير عبد الله بن علي، تاريخ طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى تحقيق مصطفى عبد الكريم الخطيب، رسالة ماجستير قيد النشر، دمشق ١٩٨٧.
٤٥ ـ الوزير محمد بن إبراهيم، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار البشير عمان ط/١ ١٩٨٥.
٤٦ ـ Brockelmann Carl Geschichte Det Arabischen Litteratur Erster supplement band 3 Vol Leiden 1937 1942.